

تألِيفُ: الدَّكْتُور بادلُووي لاشيل

أَخْبَارُ الْحَمْلَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي خَرَجَتْ
مِنْ طَرَابِلسِ إِلَى بَرْقَةِ فِي عَامِ ١٨١٧

تَرَجَّمَهُ: الدَّكْتُور الرَّاهَدِي صَفَّيُّ ابْوَلَقَةَ

أخبار الحملة العسكرية التي خرجت
من طرابلس إلى برقة في عام ١٨١٧

NARRATIVE OF AN EXPEDITION FROM TRI-
POLI IN BARBARY TO THE WESTERN FRONT-
IERS OF EGYPT IN 1817 .

حقوق النشر محفوظة
لدار مكتبة الفكر

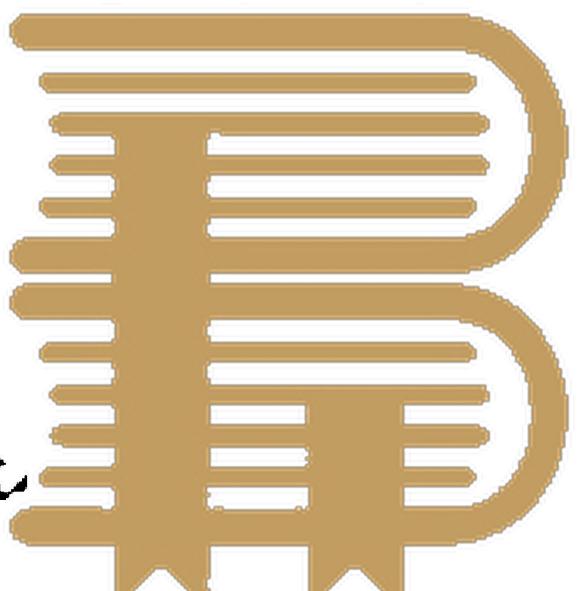
الطبعة الأولى
آب (اغسطس) ١٩٦٨

تأليف: الدكتور باولوردي لاشيل

أخبار المحلاة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة في عام ١٨١٧

ترجمة: الدكتور الهاادي مصطفى أبو لقمة

شبكة كتب الشيعة



مُنشَّرات دار مكتبة الفنون

طرابلس - ليبيا

shiabooks.net

mktba.net رابط بديل

الاهداء

إلى الجامعه الليبيه التي لا تتواني
عن تقديم كل مساعدة إلى طلابها .

من مقدمة المؤلف

كنت خلال إقامتي في طرابلس ، كضيف زائر على صديقي قنصل سردينيا ، في غاية الشوق لامكان توفر فرصة مناسبة لتمكن خلالها من زيارة المنطقة ما بين طرابلس وخليج سرت و منطقة البتاويس بغية ملاحظة المعلومات الجغرافية و تدقيقها ، ولظني ان منطقة خليج سرت بعمقها الكبير داخل الأرض اليابسة لا بد وان تكون غنية بحياتها الحيوانية والنباتية ، ولأتأكد من المعلومات الكثيرة التي خلفها السلف عن منطقة برقه وخاصة نبات السلفيوم الذي ينمو في أرض تغل ثلاثة محاصيل في السنة الواحدة ، ولا تذوق تلك الفواكه المديدة التي قيل انها كانت

تُوجَد بِكثرة في حدائق أيو سبريدس . ولهذا فأننا في غاية السرور والفرح لأن أمني سيتحقق قريباً بصاحبة الحملة العسكرية إلى برقة مما سيوفر لي عامل الحماية وهو مالا يمكن تحقيقه بدون مصاحبة مثل هذه الحملة العسكرية الكبرى .

تقديم المترجم

في ١٨١٧ زمن حكم الباشا يوسف القره مانلي لما كان
يعرف بـ ايلايتى طرابلس وبرقه ، كان الدكتور باولو دي
شيلا يقيم ضيفاً على صديقه قنصل سردينيا . امتازت فترة
حكم القره مانليس (١٧١١ - ١٨٣٥) بكثرة الخصومات
والمنازعات بين أفراد الأسرة قصد الوصول إلى السلطة
والحكم . فالباشا يوسف الذي حكم من (١٧٩٦ - ١٢٨٢)
وصل إلى كرسى الحكم بعد أن تمكن بالخدعية أقصاء أخيه
محمد ، وأكثر من هذا ارتكب يوسف جريمة قتل أخيه
حسن الوريث الأول لتولي مهام الحكم في حالة وفاة والدهم
الذي لم يسلم هو الآخر من التعرض لبعض شرور يوسف
المذكور .

خلف الباشا يوسف أربعة من الابناء الذكور كان اكبرهم الي محمد الذي اظهر تفوقاً ومقدرة عسكرية جعلته يكثير من الاعتزاز بنفسه ، حتى انه تجرأ في احدى المناسبات وحاول طعن والده الذي كان يخشى اتخاذ أي اجراء تأديبي ضد ابنه لخوفه من العاقبة إذا هو أقدم على مثل هذا التصرف . وفي هذا ما اضطره إلى تعينه حاكماً على بنغازي ودرنه حيث اظهر الابن اهتماماً سريعاً من أجل تقوية مركزه واعلان العصيان النهائي على والده بعد ان تمكّن من ضم بعض القبائل الكبيرة إلى جانبه .

حمل تصرف الابن العدائي والده على سرعة اتخاذ الاجراءات التي تضمن إعادة المنطقة إلى ولائه ، وتأديب ابنه ، وبالفعل جهزت حملة عسكرية بقيادة الابن الثاني ليوسف باشا الي أحمد الذي عينه والده في منصب أخيه ومنحه لقب البيكاوية .

طلب الي أحمد من والده امكان توفير طبيب يصحّبه في رحلته إلى برقة ، وقد كان يوسف باشا على علم بوجود الدكتور دي شيلا لدى زميله قنصل سردينيا الذي طلب منه البasha امكان قبول الدكتور دي شيلا مرفقاً ابنته

وقائد حملته العسكرية إلى برقه .

كانت روح المغامرة وحب الاستطلاع متوفرة لدى الدكتور ، وكان صديقه القنصل يعرف هذا جيداً مما جعله يظهر موافقته من قبل أن يستشير الدكتور في هذا الخصوص .

خرجت الحملة العسكرية من طرابلس صباح ١١ فبراير ١٨١٧ ، ووصلت إلى الحدود المصرية ثم عادت عن طريق بنغازى واستغرقت قرابة ثمانية أشهر باستثناء فترة العودة ما بين بنغازى وطرابلس (انظر الخريطة) .

ارسل الدكتور دي شيلا خلال تلك المدة ثمانية عشر رسالة إلى استاذه وزميله الاستاذ فيفياني ، Viviani الذي يظهر انه كان استاذ علم النبات بإحدى المعاهد في مدينة جنوه الإيطالية .

كانت الرسائل باللغة الإيطالية بحكم جنسية صاحبها ، وفي سنة ١٨٢٢ تمكن انتوني افريرا Anthony Aufrere من نشر هذه الرسائل باللغة الانكليزية في كتاب يحمل عنوان: قصص أو حكايات الحملة العسكرية التي قامت من طرابلس إلى الحدود

يشعر القارئ من قراءة هذه الرسائل بتحيز دي شيلا وكراهيته العميماء للعرب سواء البدو أو الحضر منهم ، وهو وان اظهر في اكثر من مناسبة ، بعض العبارات التي يفهم منها عدم رضاه عن تدهور الأحوال وخاصة في مجال الزراعة والامن ، إلا أنه يعود ويظهر سخطه في عدم أحقيبة أولئك القوم في الحياة أصلاً . لقد تجنبت عن قصد عدم اتباع مبدأ الترجمة الحرافية لكل ما جاء في رسائله لا تغاضى عن كل ما يورده من سباب وشتائم ، واكتفيت أن اشير إلى ذلك عند الضرورة ، كما اني لم اهتم كثيراً لما تعرض له من نواحي اجتماعية محضة ولتفاصيل الدقة لاسماء بعض النباتات وتفصيل الحديث عن الآثار المختلفة ، لأن ما دفعني في الواقع لهذه الترجمة هو اعطاء صورة ولو بسيطة عن الكيفية التي كان يفكر بها الكثير من الغربيين والتي لا زالت ، مع الاسف ، موجودة حتى اليوم .

سيجد القارئ في دي شيلا ، رغم عصبيته وتجاهله

ذكر كلمة شكر واحدة عن قوم عاش بينهم وكانوا سبباً في تخليد اسمه ، رجلاً كثير الاطلاع إذ نراه يرجع إلى معظم المصادر القديمة وكان واعياً لاكثر ما جاء فيها . فهو رغم تخصصه كطبيب يفهم في الجغرافيا والتاريخ ، وله القدرة علىوعي الكثير من الظاهرات الاجتماعية التي لم تكن له بها سابق خبرة .

ان ما كتبه حول وجوب استيلاء قوة أوربية تختص بإعادة تعمير برقة الشمالية ، يعيد إلى ذاكرتنا تنفيذ الفكرة التي قامت إيطاليا بلا قدام عليها في بداية هذا القرن ، وفي اصرار دي شيلا على القيام بهذا الدور وان برره بحججة إعادة رحاء ورفاهية هذه المنطقة ، إلا انه لا يخفى رأيه في وجوب سيادة المستعمرين الجدد . لقد كره دي شيلا كل شيء إلاروبي برقه وعظم ماضيهما ووجوب إعادة هذا الماضي لصالح قوة أوربية ، لم يذكرها صراحة ، واكتفى بالإشارة إلى سروره عندما تقوم علاقات تجارية بين جهات برقه وبين الموانئ الإيطالية .

دراعي الحملة

لم يكدر يمضي يوم واحد على وصولي إلى طرابلس إلا وفكرت أن أرسل إليكم بعض النباتات والمعادن والأشياء الأخرى التي لها علاقة بالتاريخ الطبيعي لادليل لكم على أن البعد وطول المسافة لن يقتلا عندي حب العلم ، وتذكري لاستاذ أكن له أجمل الذكرى .

تقع طرابلس على ساحل البحر في منطقة لا يجد بها المهم بدراسة التاريخ الطبيعي غير الرمال وبعض النباتات الطبيعية التي سرعان ما تختفي بسبب الجفاف وارتفاع درجة الحرارة . تسكن في ضواحي المدينة بعض القبائل البدوية الشرسة إذ ان سلب من يقع بين أيديهم من المسافرين

يعتبر بحق أهل الشرور التي قد يتعارض لها . وقد تحولت المدن القديمة ، التي كانت على درجة كبيرة من الرخاء والتقدم ، إلى مناطق مهجورة ودمرت عن آخرها . فمجموع السكان لا يزيد عن ثلاثين ألفاً موزعين بين طرابلس وتاجوراء وزليطن ومصراته وبنيغازي ودرنه أي في منطقة يزيد طولها على تسعمائة ميل بين طرابلس و الخليج به .
يكاد اختراق المنطقة الصحراوية المطلة على الخليج سرت من الأمور المستحبطة على النفر القليل من المسافرين لعدم توفر الأمن من جهة واحتمال التعرض للهلاك بسبب الجوع والعطش في حالة النجاة من شرور البدو الذين يسكنون في هذه المناطق . أما في المناطق بعيدة عن الساحل وحتى في بعض الجهات القرية من طرابلس فلن يجد المسافر مكاناً يستريح فيه إلا داخل خيام البدو الذين رغم اشتهرهم بعزة الكرم ، إلا أن الكثير من المسافرين قد وجدوا فيهم عكس ما كان يدور باذهانهم .

لو تأملت خريطة إفريقيا التي نشرها أرو سميث Arrow Smith والتي بين عليها الدروب التي سلكها الرحالة في هذا الجزء من العالم فستلاحظ أن بعض أولئك الرحالة قد

اخذوا طريق فزان في الوصول إلى طرابلس من مصر . كما أن بعض المغامرين قد سلكوا طريق الصحراء الكبرى ما بين طرابلس وتمبكتو أو عرجوا عبر الصحراء في الوصول إلى ضفاف النيل ، وستلحظ أن أحداً لم يغامر في الدخول إلى أقليم المتابولس : أرض قوريه وبرقه القديمتين ، إذ يظهر أن طريق الوصول إلى هذه الجهات قد ترك من أجله . وهذا فأنا تواق لزيارة منطقة سرت ، أرض الزوابع والعواصف ، وأأمل أن أوفر لك مادة علمية كافية حتى تعطى العالم صورة عن الحياة النباتية في هذه المناطق ، دون أي خوف من الوقوع في قبضة البدو أو أن أهلك بسبب قلة مستلزمات السفر من شرب وأكل إذ سيكون في حمايتي عشرة آلاف جندي ، وسيوفر طابور طويلاً من الإبل الخوف من تقضي الموارد التموينية . وهنا لا أخالك أبداء اندھاشك البالغ من السبب وراء هذه الحملة العسكرية التي أرجو من جهتنا أن تتحقق بعض النتائج الطيبة فيما يتعلق بخدمة العلم والادب .

لا يوجد من بين الوحوش التي عرفتهم اساطير افريقيا القديمة من هو أفظع ولا أقسى من الي محمد الابن

الاكبر لباشا طرابلس : انه رجل بارد وعنيف ، حقير في تفكيره ، متوحش وبربري المزاج ، يطلق العنوان لنفسه دون تفكير ، وليست هناك حماقة الا وارتکبها ، اهم هو اياته مشاهدة خدمه وعيشهه يمدون ألمًا بعد أن يسقيهم جرعات الزرنيخ .

عين هذا الابن قائداً ، مع اعطائه كامل الصلاحيات ، على جيش كلف بتأديب قبيلة صغيرة رفضت دفع الاتاوة المقررة عليها وغارت على بعض جهات خليج سرت ، وقد رأى البي محمد في هذا التصرف ما يكفي للتنكيل وإبادة معظم القبيلة . زاد هذا الانتصار من كبراء البي محمد حتى انه لم يعد يعامل والده بالاحترام اللازم بل وتجرأ في احدى نزواته على رمي والده بخنجر كاد أن يصيبه لو لاذ نبهت إحدى الجواري سيدها الباشا للأمر . كان المفروض أن ينال هذا الابن العاق الجزاء الرادع وينزع منه ما كان يتمتع به من نفوذ حتى لا يتادى في تصرفاته الحمقاء ، إلا ان والده بدل هذاعينه حاكماً على بنغازى ودرنه حيث تعيش قبيلة الجوازي التي لا تكون الولاء والاحترام لباشا طرابلس ، والتي استطاع الابن ضمها إلى جانبه والتمرد على والده وبالتالي .

انتشرت الفوضى رغم الاضطراب بمجرد وصول البشري محمد إلى بنغازي ، الذي أعلن بعد فترة وجيزة رأية العصيـان النهائي على والده الذي رأى من جانبه وجوب العمل على تجهيز حملة عسكرية بقيادة ابنه الثاني الذي عينه مكان أخيه والذي طلب إليه الانتقام منه منها كلف ذلك من مساق .

كان البشري أحمد على خلاف الكثير من المسلمين ، على جانب كبير من الخذر ، مما جعله يفضل وجود طبيب يصاحبه في هذه الحملة العسكرية ، ولحسن الحظ كان البشاـر يعرف عن مهنتي وطلبه وبالتالي امكان مرافقتي لابنه . ولما كان صديقـي قنصل سردينيا يعرف مقدماً رغبـتي في الوصول إلى تلك المناطق فقد سره أن يوافق دون تحفـظ . ولعلـك ترغـب الأن في معرفـة الطريقة التي يجمع بها هؤلاء القوم لجـيشـ ما ، وعن طبيـعة امـتـثالـ الأوـامرـ بينـ صفـوفـ الجـيشـ ، وكيف تتم عملية توـفيرـ متطلـباتـهـ منـ عـتـادـ وـمـؤـونـةـ فيـ منـطـقـةـ تـكـادـ تكونـ خـالـيةـ منـ السـكـانـ وـلـيـسـ بـهـاـ ماـ يـوـفرـ ولوـ القـلـيلـ منـ هـسـتـلـزـمـاتـ مـثـلـ هـذـاـ الجـيشـ .

رأـيـ البـاشـاـ انـ لـابـدـ مـنـ استـعـمالـ القـوـةـ ضدـ اـبـنـهـ حـاـكمـ

بنغازي ودرنه فأصدر أوامره لشائخ القبائل لتجهيز قوة
يتناسب عددها مع أفراد كل قبيلة ، وعلى أن يحضر جميع
الشائخ إلى طرابلس لاستلام الخيام والأعلام الخاصة بكل
منهم ، مع ملاحظة أن المرابطية والأشراف هم وحدهم
الذين لهم شرف حمل الأعلام الخضراء على اعتبار أن
الأولين لهم حظوة قداستهم وظهورهم ، ولا نماء الأشرف
إلى نسب محمد ، أما باقي الأعلام الأخرى فكلها ذات
لون واحد .

قبل خمسة أيام من مغادرتهما افيف احتفال لم يزد
عن كونه إعلان حالة الحرب ضد الأبن الخارج عن طاعة
والده ، وفي نفس الوقت كان الاعداد لمسيرة المحملة يسير
حيثياً، والبيبي أحمد مشغول بزيارة جميع المرابطية في المدينة
طالباً منهم الصلاة والدعوة لتوسيعه .

بدء الرحلة

تركت طرابلس صباحاً يوم ١١ فبراير ١٨١٧ ، وقد رافقنا البasha إلى منطقة لا تبعد كثيراً عن طرابلس حيث وجدنا معسكراً أقامه بعض الجنود الذين خرجوا لمقاتلتنا والانضمام إلينا لأن عدد أفراد الجيش حين مغادرتنا طرابلس لم يزد عن ٥٠٠ جندي بما فيهم المساعدين العسكريين لقائد الحملة ، وبعض الارقاء ، والحرس . وكان معروفاً للجميع أن الجيش لن يكتمل عدده قبل عبورنا منطقة سرت حيث تعيش بعض القبائل التي ستعمل على تزويد عدد أفراد هذا الجيش . كانت النسوة يزغردن طوال الطريق ، وقد أخبرت إهن بقيامهن بهذا العمل إنما يتفاءلن بعودة أزواجهن واقربائهن سالمين . توقفت القافلة

بعد مسيرة ساعتين لقضاء الليلة بمعسكر قبل تاجوراء
مبشرة .

ان أي اوري سيدرك ومنذ اللحظة الأولى مسدي
الفوضى والاضطراب ، فسلم يكن هناك أي نظام يحكم
تحرك الجيش الذي خلا من التناسق في اسلحته وملابسها :
فالجندي من هؤلاء يحمل بندقية قديمة ومسدسات أكثر
قدماً ، ويلبس الجرد الذي يحد من الحركة ، ونعلاً من جلود
الابل بينما تتدلى من وسطه ثلاثة أكياس صغيرة يحمل فيها
مسحوق البارود وما يلزم لخشوة البندقية . والسؤال ما
الذي يمكن أن يتمنى الجندي عليه أن يوفر سلاحه
وملابسه ، والذي يخوله انحرافاته في جيش الباشا أن يعيش
بالمجان مع اعطائه كامل الحقوق في امتلاكه ما يقع تحت
حوزته !!

تشترك مجموعة من الجنود ، في الحالات التي يعبر فيها
مثل هذا الجيش مناطق صحراوية واسعة ، في شراء جمل
لحمل متعارفهم ، الذي يتكون من دقيق الشعير لعمل
الزمهيته ، والشعير لاطعام جيادهم ، وحصيرة من ورق
النخيل للجلوس والنوم عليها ، وقربة لحمل الماء ، والقصبة

التي لها عدة فوائد منها : تجيز الزمية ، وغسل الملابس
وسقي الجياد والابل .

حضر إلى المعسكر في مساء هذا اليوم بعض سكان
الجهات الغربية وقدموا لنا البازين الوجبة الشعبية
والمعروفة بين سكان المنطقة ، ولعلك لا تعلم أن كثرة
استعمال الزمية والبازين يولد بالتأكيد ظاهرة الامساك لأن
مثل هذه الوجبات تجهد المعدة وتسبب مرض المثانة
في الكثير من الحالات .

في أول ليلة اقضيها في معسكر هؤلاء القوم ، كان كل
شيء جديداً بالنسبة لي مما يضطرني لاتقل إليك وصفاً ولو
جزءاً ، لتلك المظاهر التي ستتكرر كل يوم . تنصب
الخيام في شكل شبه دائرة مع مراعاة أن يكون مدخل
المخيم في مواجهة الطريق الذي سيسلكه الركب في اليوم
ال التالي . تقام خيمة البى والطبيب والخازن دار (مسؤول
المعسكر) وسط المخيم ، يلي ذلك خيام الحرس وتنصب خيام
الجندي تكون شبه الدائرة ، وفي مدخل المعسكر تربط
جياد البى وتنصب قريباً منها ثانية مدافعة برنزية تحررها
عربة مهللة ، كما ترفع في مكان غير بعيد ، رايتان كبيرتان

تحملان شعار الاسلام يقوم بحراستها اثنان من الاشراف .
إذا تمكن أحد المغامرين من قلب حكومة أحد الباشوات ،
واستولى على السلطة فان الخليفة يسرع في ارسال فرمان
لتعيينه محل سلفه مقابل تلقى الاخير اوامرہ من الخليفة .
والمحذر بالذكر أن أي رجل يتمكن من لمس هذا الفرمان ،
وبغض النظر عن الجريمة التي ارتكبها ، فانه يصبح في
مأمن من العقاب .

يقوم نظام المراقبة الليلية داخل المعسكر على طريقة
غير مقبولة ومنظمة إذ بمجرد اطلاق أحد البنادق يقوم
أحد الضباط (شاوיש) بنداء عال يقول فيه احترس ،
وتردد الخيمة القرية منه هذا النداء إلى أن تذتهي
الدورة ثم يعود الشاوיש لترديد هذا النداء كلما انتهت
الدورة ويستمر في ذلك حتى الصباح .

وفر قرب تاجوراء من العاصمة عامل الحماية والطمأنينة
ما جعل السكان يحولونها إلى مسرح للحرف الريفيية على
الرغم من وجود شريط من الكثبان الرملية التي تفصل هذه
المنطقة الضيقة عن منطقة جبال غريان التي هي أول شيء
يشاهده القادم بحراً ، والتي تبعد مسيرة يوم كامل عن

العاصمة طرابلس ، وترتفع إلى حوالي ٥٠٠ متر فوق سطح البحر . وهذه الجبال على الرغم من وعورتها وامتدادها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي تسقط بها كميات وافرة من الأمطار وتشتهر بانتاج الكميات الهائلة من الزعفران وغيره من النباتات التي تستخرج منها العقاقير الطبية .

توجد قريباً من طرابلس وفي منطقة تاجوراء أيضاً الكثير من اشجار النخيل التي لا يسر منظرها نظر الرجل الاوربي وأن أعطت توافقاً مع المظهر التضاريسى المقفر ، على الرغم من ان تمورها تكون جزءاً أساسياً من غذاء السكان لأن زراعتها لا تحتاج إلى مجهد وعناية خاصة . والبلح الطازج يكون جزءاً هاماً من فائدة الغنى والفقير لأن الحصول عليه لا يحتاج إلى مشقة ، وفي هذا ما يوافق رغبتهما في حب الكسل على الرغم من ان نوعية البلح والتمور في هذه الجهات ليست مثل النوع الجيد الذي تشتهر به تونس او اقليم فزان ولو ان تمور الاخيرة لا تعرف في اوربا .

يحصل السكان بقطع رأس النخلة على نوع من الحمور يعرف بلاقبى ، واللاقبى إذا لم يتمخرمشروب شهي المذاق ، أما

في حالة تخرمها فيمثل نوعاً من المشروبات القوية التي يشتهر
طلب السكان عليها رغم تحريم القرآن لتناولها . وبالمقابلة
فإن معرفة العالم لهذا النوع من المخمر معرفة قديمة ، فقد
ذكرها على سبيل المثال المؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي
أشار أنه من بين الهدايا التي أرسلها قبليز إلى أهالي أثيوبيا ،
مركملاً بنبيذ مصنوع من شجر النخيل الذي يحتاج
لمرور ثلاث سنوات قبل أن يعطي محصولاً جديداً قيل انه
يتميز بأنه أفضل نوعاً والذى أقام من المحصول قبل استخراج
اللaciقى . كما توجد في منطقة طرابلس أيضاً الكثير من
المزارع التي يزرع بها بجانب النخيل الكثير من الأشجار
الآخر مثل الليمون والبرتقال ، وفي العادة تحاط هذه
المزارع بسياج من التين الشوكى . وباستثناء البرتقال فإن
جميع أنواع الفواكه ، بجانب قلسها ، أقل نوعية من مثيلاتها
في بلادنا . كما توجد أيضاً العديد من أشجار الزيتون التي
تتميز بأوراقها أغمق من تلك التي نعرفها ، ورغم
الطريقة البدائية التي تتبع في عصر محصول الزيتون ،
باستعمال قطع من أعمدة حجر الجرانيت التي كانت
مستعملة في بناء المدن القديمة كلبدة وصبراته ، إلا ان

الزيت من النوع الجيد ، والواقع ان جميع السكان لا يقدرون أي شيء مما يوجد حولهم من آثار كثيرة غير مثل هذه الأعمدة .

يقطن تاجوراء قرابة ثلاثة آلاف نسمة معظمهم من اليهود والمغاربة ، ويسكنون منازل متباينة ويمارسون حرفة الزراعة مع بعض الصناعات المحدودة كصناعة الجرود والمحصر .

توجه البسي وصحبه لزيارة ضريح أحد المرابطية ولعله من المفيد أن اعطيك وصفاً موجزاً عن المرابطية . ليتم انتماوك إلى هذه الطبقة المفضلة .
ستحسن ألا تتزوج بأكثر من واحدة ، ألا تتعاطى الخمور بالمرة وان تعرف كيف تقرأ القرآن . في بلد كهذا حيث يعجز الناس عن ضبط أنفسهم وينتشر ادمان الخمر وحيث الجهل المطبق فانه من اليسير على مثل هذه الطبقة كسب صيت وشهرة وخاصة إذا كانت لهم المقدرة على تغفيل الدهاء . والمرابطية الأقل حنكة هم الذين يقومون بهز رؤوسهم وأيديهم لساعات طويلة حتى ان بعضهم قد يسقط مغشياً عليه ، وي فقد بعضهم الآخر احساسه كاملاً . ولبعض

هؤلاء شهرة خاصة لأنهم يدعون أحداث المعجزات في الأماكن العامة . تتحدر هذه الحرفة من الأب إلى الابن وهي ، على كل حال ، حرفة مربحة ولعل هذا ما يفسر انتشار وكثرة هذه الطبقة ، وعند وفاة المرابط ، وخاصة إذا كانت له شهرة ، تتعاون القبائل القرية في بناء ضريح له .

يقوم البي بزيارة أضرحة المرابطية دون أن يظهر عليه أي حرج ولكن على خلاف عادة القوم إذ يذهب دائماً دون أن يأخذ معه أي شيء وعلى أن يعود بهدية في كل مرة . يحضر مجلس البي بعض المرابطية باستمراً حيث لا ينفكون عن تردید الدعوة له بالنصر ، أما داخل المعسكر فيقومون بعملية الاتجار في بيع الأحجية التي هي قطع صغيرة من الورق مكتوب عليها بعض الكلمات التي لا يستطيع قراءتها غير الذي كتبها ، والتي يختلف ثمنها حسب الغرض منها : إذ يحمي بعضها حامله من الرمي بالخنجر ، ويحمي ثان الإصابة من البندقية ويحمي آخر حتى من قنابل المدفع . ولهذا فليس هناك جندي واحد إلا ويحمل واحداً أو أكثر منها بل أنها تعلق على رقب الحيل والابل أيضاً . تسمع كل يوم أخبار شفاء المرضى

عن طريق علاج المرابطية وخاصة إذا كان بالإمكان إحضار المرابط نفسه إلى المريض حيث يقوم الأول ببعض القراءات وكتابة أحجية تذاب في ماء يسقى إلى المريض، وقد أشيع من المدة القريبة الماضية إن إحدى زوجات الباشا قد توفيت بسبب الكمية الكبيرة التي اسقيت لها من مزيج الماء والجير . ورغم هذا فإن للمرابطية حظوة لدى البашا لأنهم لا يقبلون بدية عند حضورهم مجلسه بل يكتفون بتقبيل كتفه وهو ما لا يجوز إلا لذوي الحظوة والقربي .

مغادرة تاجوراء

تحركت القافلة في تمام الساعة السادسة والنصف من صباح ١٢ فبراير ، وبعد مسيرة سبع ساعات ، بجذاء الساحل ، وصلنا إلى وادي مسيت الذي ينبع من منطقة غريان . وفي المساء وبعد احتيازنا لحرى الوادي بنصف ساعة أقيم معسكر المبيت ، وحضرت مجموعة من البدو المسلمين ، يتقدمهم بعض مشائخهم وأحد المرابطية ، رافعين ولاءهم للبي وتقديم أنفسهم جنداً له .

تحدى حافة جبل غريان هذه المنطقة السهلية من الجنوب ، وتقطعها بعض مجاري الأودية الغنية المرعى ويسكنها عدد لا يأس به من السكان . يظهر إهمال الحكومة واضحاً في مثل هذه المناطق الخصبة التي يمكن أن تتحول

إلى أرض منتجة إذا ما عمل على التصرف في كميات المياه
من ما هناك من أودية . وهذا لا بد للمسافر من المرور على
تلك الآبار المبعثرة التي لا تصلح مياهها للشرب في معظم
الأحيان . وصلنا بعد أربع ساعات إلى قلعة قديمة تحيط
بها أشجار العنب التي لو أمكن تحويل انتاجها إلى نبيذ فان
شربه ، في نظري ، سيغرى كل من يشاهده ، وللحقيقة فإن
اهمال أشجار العنب هذه ليس بسبب ما جاء في القراءات
من تحريم الخمر بقدر ما هو راجع إلى كسل وجهل السكان
أنفسهم . كان الوقت ظهراً وبدأت درجة الحرارة في
الارتفاع الملحوظ وهو ما اضطرنا إلى أن نعسكر في مكان
يعرف بسيدي عبد العاطي الكائن فوق إحدى التلال
القريبة من البحر ، وقد انتهز البي هذه الفرصة ليقوم
بتسلية صقره المفضل ولينتظر تزويده بما يحتاجه الجيش
من مؤونة وجند . اني مندهش لمدى نشاط وفرحة
هؤلاء القوم من الرحيل الذين لا يعرفون أية قوانين ولا
يخضعون بحال للمقاييس الجبرية ومع ذلك نراهم يحضررون
عند أول إشارة للانضمام إلى جيش البي الذي ما عليه إلا أن
يظهر كامل امتنانه وشكره على ولائهم له .

كان البرد شديداً أثناء الليل مما سبب لي الكثير من المتاعب إذ كانت درجة الحرارة في الخامسة صباحاً أربع درجات فوق الصفر بينما كانت ستة عشر درجة مئوية في الظل ظهر اليوم السابق . بدأنا التحرك في الساعة السابعة والنصف وكان السير صعب للغاية بحكم طبيعة الأرض الهضبية وما يتخللها من أودية كثيرة يوجد ببعضها بعض المناطق المزروعة زيتوناً ونخيلًا وبعضأشجار العنب المهملة ، كما توجد العديد من القلاع الأثرية والأبار القديمة .

الوصول إلى لبدة

بتغيير خط سيرنا نحو الشمال وصلنا إلى لبدة المدينة الـاثرية الشهيرة حيث اقمنا معسكراً بجذاء الساحـل وعلى مسافة قصيرة منها . تقع لبدة على ساحـل الـبحر في المنطقة التي تنتهي عندـها الحـافـة الشـاهـلـية لـجـبـال مـسـلاتـه مـكـوـنة بـذـلـك منـطـقة سـهـلـيـة وـاسـعـة توـجـدـهـاـ الكـثـيرـ منـ أـشـجـارـ النـخـيلـ وـالـزـيـتونـ . تـنـتـهـيـ جـبـالـ مـسـلاتـهـ غـربـيـ لـبـدـةـ مـباـشـرةـ ، وـتـقـومـ عـلـىـ هـذـهـ جـبـالـ بـعـضـ القـلـاعـ الـحـرـبـيـةـ الـقـدـيـمةـ ، أـمـاـ إـلـىـ الـجـنـوبـ مـنـ لـبـدـةـ ، وـبـعـدـ اـنـتـهـاءـ الـمـنـطـقـةـ السـهـلـيـةـ توـجـدـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـهـضـابـ الـمـحـدـودـةـ الـاـرـتـفـاعـ وـالـتـيـ تـتـهـيزـ بـفـقـرـ حـيـاتـهـ النـبـاتـيـةـ إـذـ لـيـسـ بـهـاـ أـيـ زـرـاعـةـ عـلـىـ الرـغـمـ

من ان مجرّهوداً بسيطاً يمكن أن يحوّلها إلى مزارع عنب وزيتون غنية .

ليس هناك من بقايا لبدة إلا بعض الآثار المبعثرة هنا وهناك والتي من أهمها مخلفات بعض المبني العامة وبعض الأبراج المخطمة وأكوااماً من الأعمدة الجرانيتية الحمراء والرخام الممتاز .

يعتقد الكثيرون أن لبدة قد استقرت في العهد الغابرة من قبل الفينيقيين ثم تحولت بعدهم إلى مستعمرة رومانية . وقد كان من العسير على التعرف على لبدة الفينيقية عكس الحال مع المدينة الرومانية التي يمكن الاستدلال عليها بكل يسر لا بسبب ما هناك من رسومات وخرافات، وإنما بسبب الطابع المعماري الروماني المميز ، لاعتقادي ان الباطورة الرومان ، نظراً لما كانوا يلقونه من مساعدة وتكريم من المدينة ، كانوا مستعدين دائماً لرد الجميل بإقامة المبني الفخمة مما يحفظ بالقالي الكثير من المدينة القديمة . وللعلم فقد كان تحديد موقع لبدة على هذا الجزء من الساحل الإفريقي موضوع اختلاف الكثير من المؤرخين الذين لم يتفقوا أيضاً على تحديد موقع كل من

نيابلس Neapolis وأبروتيس Abrotanus . وأنا لا يخالجني شك في ان مدينة طرابلس Tripoli كانت تعنى لدى الجغرافيين القدماء مكان بعض الآثار التي توجد إلى الغرب من مدينة طرابلس الحالية وان كان سبب تدمير ذلك المكان لا يعرف سره حتى الآن . وأنا شخصياً أؤمن للأخذ بهذا الرأي بسبب تملك القراءة الصحيحة التي أوردها الجغرافي بطليموس Neapolis أو طرابلس الجديدة ، وفي هذا خلاف لما يوردہ سيلارس Cellarius الذي يخلط بين اسمی طرابلس ولبدة .

(١) سالاست : مؤرخ روماني عاش في القرن الاول الميلادي وشتهر بكتاباته عن مؤامرة كاتلين وحروب قرطاجنة التي عين حاكماً عليها حين استولى الرومان عليها لأول مرة .
بليني : ولد في سهل لمبارديا ، وشتهر بكتابه المعروف بالتاريخ الطبيعي المكون من سبعة وثلاثين جزءاً ، هذا بالإضافة إلى ما ضاع من مؤلفاته العديدة في فن العلوم العسكرية واللغة والتاريخ .

سيلارس : لم اتمكن ان اعرف عنه شيء وان كان المرجح انه مؤرخ روماني هو الآخر .

تحدث بطليموس واتفق معه المؤرخ بليني على طرابلس الجديدة ولبدة على اعتبار انها مدينتان مختلفتان ، والواقع أن ما تركته جغرافية بطليموس حول هذا الجزء من القارة الافريقية يستحق عليه منا جزيل الثناء . وعلى أية حال فان لمدة ، حتى مع الافتراض أنها سميت في فترة من الفرات Neapolis كما يقول سيلارس ، إلا إن سلاست Sallust يؤكد ، وتأكد أيضاً ما خلفه مؤسسوها من تقويد معدنية ، أنها كانت تعرف باسم لمدة Leptis ، وإنما استمرت تعرف هكذا بخلاف ما ذكره بعض الجغرافيين القدماء ، هذا بلاضافة إلى اني لست متفقاً مع ما ذكره استрабو الذي تكلم من أبروتنس Abrotanus (صبراته) التي يحدد موقعها غربي طرابلس ثم يذكر أن لمدة تقع قريباً منها أي غربي طرابلس .

قضى البي باقي اليوم في تفقد أحوال الجيش وكان لا يتوانى عن اظهار جام غضبه لمشائخ القبائل التي لم توفر العدد المطلوب من الجنود والتي عليةها في مثل هذه الحالات التعرض لما يأمر به من عقوبة أخفها العبث بخيانتها . كنت في المساء في عيادة صهر النبي الذي كان يشكو من

صداع شديد والذي مع ذلك لم يقتصر بالسماح لي بمعالجته ،
بحكم تعوده على علاج المرابطية وعمل الأحجية ، إلا بعد
أن أكدت له أنني سأشفيه تماماً . لقد بدأت أكسب ثقة
البعض بالتدریج وهو ما زاد بالطبع من كره المرابطية
لي حيث انهم احتجوا لدى النبي حيث لاموا عليه قبوله
وضع حياته بين يدي كلب مسيحي .

في الطريق الى مصراته

تحركنا في تمام الساعة السادسة من صباح ١٥ فبراير ، وكانت الرياح غربية خفيفة اسقطت بعض المطر ، وفي الطريق قابلنا ثلاثة من الزنوج قبلوا يدي البيي ودار بينهم حديث عرفت منه اننا بالقرب من ضريح أحد المرابطية . أصدر البيي أمر التوقف ليتمكن من زيارة الضريح ولاعطاء فرصة للقبائل القرية تتمكن فيها من تزويدنا بما نحتاج اليه من مؤونة . وفي هذا الاثناء لفت زيني الاوربي نظر أحد المرابطية مما حمله على الاقتراب مني والتفوه ببعض الكلمات عرفت بعد ان ترجمت لي انه كان يتمنى أن يأكلني حيأ وللحقيقة فقد لامه البيي على هذا التصرف المشين .

وصلنا إلى وادي عين كعام بعد مسيرة ثلاثة ساعات من لبدة ، وكان المجرى جافاً وان ظهرت هناك بعض البرك على جانبيه . ان هذا الوادي ، الذي ينحدر من التلال القريبة ، لا بد وان يكون وادي سينفس *Ciniphvs* المعروف للجغرافيين القدماء إذ اتفق كل من استرابو وبطليموس في تحديد مكانه إلى الغرب من رأس سيفلس *Cephalus* الذي يعرف حالياً برأس مصراته ، وان كان سيلارس قد اخطأ بوضعه إلى الشرق من الرأس المذكور . لقد اصاب استрабو ايضاً حين ذكر إن الفينيقيين أقاموا جسراً لعبوره إذ لا تزال بالفعل أحmeda ذلك الجسر ظاهرة للعيان ، وقد جانبه التوفيق للمرة الثانية حين قال بفيضان هذا الوادي وهو ما يزال يحدث إلى الآن زمن هطول الأمطار الغزيرة . وفي رأيي أن سكان لبدة كانوا يحصلون على بعض حاجتهم من مياهه لأن بقايا السوق المائية بينه وبين لبدة لا زالت موجودة وفي أكثر من مكان واحد . فاذا صح هذا ، وهو أمر كثير الاحتمال ، فان وادي عين كعام والهضاب المحيطة به من الجنوب ، لا بد وان تكون ما اطلق عليه بطليموس منطقة الحسنوات وهو ما ذكره

هيرودوت قبل ذلك بوقت طويل .

يوجد بين وادي عين كعام ورأس مصراته سهل عريض وفي غاية المخصوصة ويظهر أن هذا السهل ربما كان أكثر جهات ليبيا عمراناً بالسكان لأن هيرودوت يقارن بينه وبين السهل المحيطة بمدينة بابل التي كانت أخصب الجهات المعروفة آنذاك . توجد في هذا النطاق السهلي ثلاثة مناطق عمرانية منها قرية زليطن التي تسكنها مجموعة من اليهود وأخرى أكبر عدداً من المرابطية تسيطر على المجموعة الأولى سيطرة مطلقة .

اختفت العيون المائية التي كانت موجودة ولها شهرة في القديم ، وتركت الرمال في معظم أجزاء السهل ، واقتصرت مياه الشرب على ما هناك من برك آسنة ، وتحولت الكثير من الآثار القديمة إلى مقابر وأضرحة للمرابطية . ووصلنا عبرنا لهذا السهل الجميل الذي كان مزدهراً والذي تحول الآن إلى منطقة تكاد تكون مهجورة إلا من بعض المراكز العمرانية الصغيرة وأضرحة المرابطية التي كان النبي يقوم بزيارة بعضها بين آن وآخر رغم أنه لم يكن ليوقف مسيرة الحملة إلا في بعض الجهات

الماهولة منتظراً بذلك تزويده بالمؤن ، فإذا حصل وخام
ظنه أمر بحرق جميع الخيم والأكواخ والاستيلاء على ما
هناك من حيوانات بعد معاقبة أصحابها .

حضر رسولان من بنغازى وأخبرا النبي أن أخاه ما
ان عرف بخبر الحملة التي يقودها حتى رحل واستقر على
بعد مسيرة يوم كامل شرق المدينة . ادخل هذا الخبر باللغ
السرور على نفس النبي وظهرت في المعسكر بشائر الفرج
وكثر الحديث عن جبن النبي المنسحب .

توجد قبل مصراته بحوالي ثانية ساعات ، وبين
الكتبان الرملية الساحلية ، مدينة أوري Orir القديمة التي
لم يبق منها سوى بعض اجزاء الجدران وبعض الارصفة المزينة
بالفسيفساء مما يدل انها كانت مدينة منسقة . ويبدو لي أن
موقع بقايا آثار هذه المدينة يتافق تماماً مع ما ذكره
بطليموس عن سيدسترن Cistern التي يقول عنها انها
تقع بين رأس مصراته وبين برك أو مستنقعات وادي
عين كعام . وصلنا الى قرية زاوية زاوية المحجوب الواقعة
وسط مجموعة من المزارع الخضراء التي كان بجمال موقعها
وكثر آبارها بالإضافة الى قربنا من مصراته ما جعل النبي

يفضل قضاء الليلة في هذه القرية لا ليتم تزويدنا بما نحن
في حاجة إليه فقط ، وإنما ليكون دخول البي وجنته إلى
مistrateه مهاباً في الصباح . حضر سيدني محمد الأغا حاكم
مistrateه ، ليقدم ولاءه للنبي وبصحبته فرقة كبيرة من
الزنج والمرابطية لتدعم الجيش ، وفي الصباح كانت
مسيرتنا بالقرب من البحر وفي منطقة زمية جردا ، إلا
إنما ما كدنا نشرف على مistrateه حتى وجدنا أنفسنا في
منطقة سهلية فسيحة تتخللها حقول القمح وغابات من
أشجار الزيتون والنخيل . أصبحت مجموعة المضاب
والمرتفعات التي كانت تحد المنطقة السهلية قبل Mistrateه
يتضاعل حجمها وارتفاعها حتى أنها كادت تختفي كلية .
وهنا أرى لزاماً على أن أصحح خطأ ورد في خريطة
أروسميث الذي اعتبر جبال غريان تمتد بلا انقطاع إلى
رأس Mistrateه ، والواقع أن هذه الجبال تنتهي عند لمدة
وليس Mistrateه كما ذكر أروسميث .

مدينة مصراته

تقع مصراته على بعد قليل من البحر حيث النهاية الغربية لخليج سرت ، ومصراته لا تتكون كما هو الحال مع المدن الاوربية من مجموعات متلاصقة من المنازل لأن بيوتها صغيرة ومتباعدة وتفصلها الحدائق عن بعضها ، وبناؤها من النوع الرديء في الغالب لأنها تبني أساساً من الحجارة الخلوطة بالطين والوحول ، أما الاسقف فعبارة عن مجموعة من جريد النخيل المغطى بالوحول والرمل ولهذا فكثيراً ما تتمكن الأمطار من اذابة هذه المواد وتتعرض المنازل للسقوط . أمراض العيون والدفتيريا منتشرة بكثرة بين السكان بسبب ارتفاع نسبة الرطوبة وجهل السكان التام لاستعمال مادة الحجر الجيري كمادة للبناء رغم انهم

يعيشون فوق تربة جيرية ، وتتوفر قريباً منهم كميات هائلة من الاحجار الصلبة في المدن الائتية والتي يسوقهم جهلهم الى تفتيتها قبل استعمالها .

يعتمد سكان المدينة في حياتهم على الزراعة في المقام الأول بالإضافة الى صناعة الجروود والبسط التي يدخل في صنعها النوع الممتاز من الاوصاف المحلية . كما ان البعض يقومون بتجارة القواقل ما بين مصراته وتمبكتو بحيث تمثل أهم السلع المرسلة جنوباً من المصنوعات القطنية والبسط ، أما ما ينقل شمالاً فيتمثل في الذهب والعاج والرقيق ، وفي العادة لا يصل تجارة مصراته الى المناطق الداخلية من القارة الافريقية فتلك مهمة يتولاها تجارة القواقل الزنج لأنهم وحدهم هم الذين يستطيعون القيام بهذه العملية لسبعين : أولاً استحالة السفر الطويل وسط الصحراء المقفرة ، والثاني لأن الزنج سيكونون في مأمن داخل مناطق سكنائهم الأصلية . وهنا لا يجب أن ننسى ان اختراق ارض الجار امنت ، فزان الحالية ، كان مالوفا لدى الأقدمين الذين كثيراً ما كانوا يقومون بجلب الاحجار الثمينة الى اوربا ، ومع الاسف فان جهل الحكومة

وتصرفات حاكم مصراته بالذات قد اوشكت أن تنهي الاتصال مع الداخل ، هذا الاتصال الذي يمكن أن يزيد من ثراء المدينة لأن الوصول الى الجنوب ومن مصراته بالذات يمثل أقصر تلك الطرق .

يحكم منطقة مصراته الأغا الذي يملئ سلطات عسكرية واسعة تمكنه من جمع ثمانين مائة فارس ومثلهم من المشاة ، وما تجدر الإشارة إليه أن توفير مثل هذه القوة العسكرية لا يمكنه من احتساب عدد سكان المنطقة الفعليين لأن توفير مثل هذه القوة لا يخضع لاي نظام سوى رغبة الأغا نفسه . بجانب هذه السلطة العسكرية يعتبر الأغا مثل البشا في حكم المنطقة لأنه يجمع في يديه السلطتين التشريعية والقضائية رغم ان اطلاق لفظ السلطة على ما يمثله الأغا لا يعبر تعبيراً دقيقاً عن الواقع لأن مثل هذه السلطة لا تقوم على العدل والانصاف ولا على مراعاة العادات والرأي العام .

نزل النبي ضيفاً في بيت الأغا الذي لا يتميز عن باقي البيوت الأخرى سوى بحجمه ، وقد مكثنا يومين في المدينة بسبب العواصف الشديدة والامطار التي اطاحت

وهدمت مخياتنا ، حتى اني فضلت قضاء الليلة الثانية
في احدى الحجرات ببيت الآغا لاني لم اتمكن من النوم
لحظة واحدة في الليلة السابقة . حضر البني في صباح ٨
فبراير احتفالاً ضم سكان المدينة والقرى المجاورة ، وكان
من العادة أن يقف الآغا قريباً من البني وان تقف
الحاشية على جانبيه غير انه رأى في هذه المناسبة أن
أقف الى يمينه ليظهر للملائكة وجود اوربي في خدمته .
كانت حظوظي بهذه سبباً في تحسين معاملتي وخاصة فيها
يتعلق باعداد مائدة طعامي اذ لم تكن علاقتي مع
مسؤول المؤونة كما يجب : لقد كنت في السابق
اخاف الجوع أما الان فقد أصبحت أخشى التخمة
بعد ان حضر هذا المسؤول الى خيمتي طالباً مني
العفو عن سابق سوء تصرفه .

الرِّحْيلُ عَنْ مَصَّاتِهِ

تركتنا مصراته مجرد تحسن الأحوال الجوية ، وكانت الآغا في المؤخرة مع من كان برفقته من فرسان و مشاة و راكبي ابل والغريب في الأمر أن قيادة تلك القوة بقيت في يديه طوال الرحلة بل وأكثر من هذا استطاع أن يظهر قوته نفوذه داخل مجلس البي . بعد قليل من السير وصلنا رأس مصراته ، الذي يسميه بطليموس ترييرو Trierro في المنطقة التي تعرف بقصر أحمد وهي عبارة عن مجموعة من التلال الصخرية الممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي مكونة بذلك خليجاً صغيراً يمكن أن يوفر حماية السفن الصغيرة أثناء الظروف الجوية القاسية ، والذي تسترشد السفن في الوصول إليه بذلك الضريح الذي يقوم

في نهاية الرأس . ”^(١) يمكن للناظر من هذه البقعة أن يرى جزءاً كبيراً من خليج سرت الغربي والمناطق الصحراوية المجاورة ، وبصراحة فقد خفق قلبي كثيراً حين تذكرت اني قادم على اختراق هذه الجهات الموحشة . ولعلك تذكر ان جميع البحارة كانت تملأهم الرهبة والرعب حين يعبرون هذا الخليج الذي اشتهر بصعوبة الملاحة فيه منذ القديم ، ولعل في كثرة بقايا السفن المحطمة ما يلقي المزيد من الإيضاح على ما كانت تشهده هذه المنطقة من حوادث مزعجة . فقد ذكر استرابو مثلاً ان جميع الملائين كانوا يتحاشون دخول هذا الخليج خوفاً من الأسر أو الهلاك . يذكر سيلارس أن اسم سرت مأخذ من الكلمة اليونانية بمعنى يدخل أو يتوعّل متناسياً أن كلمة سرت تعني الصحراء في اللغة العربية ، وانها لازالت تستعمل في هذا المعنى على طول سواحل هذا الخليج التي كانت محل سكنى أو اقامة قبيلة أولاد علي التي ثارت على باشا طرابلس والتي تحكم ابنه محمد من ابادة معظم افرادها

^(١) ضريح الولي الذي يعرف بسيدي ابو شعيفه .

رغم قوتها التي كانت تسمح لها باعدام كل من يتجرأ على عبور أراضيها حتى أن البحارة كانوا يتتجنبون الدخول إلى هذه الشواطئ خوفاً من هؤلاء البدو الأشداء .⁽¹¹⁾ وفي نظري أن ما قام به النبي محمد تجاه هذه القبيلة لا يعتبر عملاً يستحق عليه اللوم رغم أنني شاهدت رأس شيخ هذه القبيلة معلقاً على عمود في نهاية الخليج الشرقية .

الحياة النباتية في هذه المنطقة فقيرة وتمثلها بعض الأعشاب القصيرة التي سرعان ما تحرق بسبب الجفاف وشدة الحرارة رغم أن الأمطار قد تهطل بغزارة أثناء الشتاء . إن ما جمعته منها ولو أنه يذكرني بمشيلات لها في منطقة ليجوريا Liguria (المجموعة المحيطة بمدينة جنوه) ، إلا أنني أشعر أن هذه تختلف في صفاتها وخصائصها مما يجعلني آمل أن تجد فيها شيئاً جديداً .

⁽¹¹⁾ بالرجوع إلى معظم القواصم العربية لم استطع ان اعثر في أي منها ما يفيد بأن كلمة سرت تعني الصحراء في اللغة العربية ، ولهذا فقد يكون سيلارس في هذا الموضوع هو الرأي والتعليق الصحيح .

بعد رحلة خمس ساعات وصلنا الى مكان يدعى آرار (Arar) في مكان وسط بين قصر أحمد والجهة المقابلة لقرية تاورغاء على جانب البحر ، حيث اقيم معسكر المبيت قرب بعض الآبار الرديئة المياه ، كما هو الحال على طول هذا الجزء من الساحل) وفي هذا ما يجعلها تختلف اختلافاً كبيراً عن مياه منطقة ليجوريا . اقمنا طوال اليوم الثاني في انتظار وصول بقية الجيش من مصراته وفيما نحن كذلك جاءنا أربعة من مشائخ بنغازي اخبروا النبي أنس سوء تصرفات أخيه قد وصلت الى ذروتها واشتد سخط السكان الذين باتوا في انتظارك وترقبك لتقديم جميع ما قد تحتاج اليه . زادت هذه الأخبار من رفع معنوية البي وجندوه الذين وصلتهم في ذات الوقت هدية من التمر من سكان تاورغاء .

قبل مغادرة آرار جمعت كميات كبيرة من المياه ووضعت في قرب من جلود الاغنام التي ذبحت في اليوم السابق بعد نشرها في الشمس ورشها بسحوق الفحم النباتي . وعلى الرغم من ان هذه المياه قد اختلطت ببعض الدماء وغيرها من الشوائب الاخرى ، الا انني اشربها بنفس

الرغبة التي كنت اشرب بها المياه المثلجة لا لشيء سوى
لاستحالة مقاومة العطش . وكما ترى يحق لهؤلاء القوم من
البدو ادعاء معرفتهم السابقة لنا في اكتشاف المطهرات التي
تستخرج من الفحم النباتي .

قابلنا بعد مسيرة بعض ساعات في الاتجاه الجنوبي بعض
التلال الواقعة الى الجنوب قليلاً من مكان يدعى ملفا
حيث يكثر نبات الديس وبعض النباتات التي يا كلها البدو
دون حاجة الى طهيها . كانت درجة الحرارة في الساعة
ال السادسة من صباح هذا اليوم ست درجات مئوية ارتفعت
عند الظهر الى 19° مئوية وفي هذا ما أرهقني كثيراً الأمر
الذي لاحظه الذي أشار علي بالتخليص من ملابسي
الأوروبية وارتداء ثياب كالتي يلبسها الآخرين . وفعلاً
ووجدت في ذلك الكثير من الراحة لاتساع هذه الملابس
وامكان دخول الهواء اليها بسرعة وبكميات كبيرة تقلل
من أثر فعل درجة الحرارة .

خلال الليل كان الهواء منعشًا بسبب تكون الندى ،
وفي الصباح كانت مسيراً علينا عبر المستنقعات التي ما ان
انتهت حتى ظهرت مجموعة من الاسبانخ وكان واضحاً أن

مياه البحر كانت قد طفت على هذه المناطق في الأيام القليلة الماضية . ارتفعت درجة الحرارة واضطررنا إلى التوقف بعض الوقت واصلنا بعدها السفر لمدة ساعتين حيث بلغنا بئر كانت درجة الوحل فيها أكثر من كمية المياه نفسها ، ولكن رغم ذلك كان لابد لحيواناتنا أن تسقى كما شرب منها بعض الجنود الذين واصلو سيرهم بعد ذلك أكثر همة ونشاطاً .

لم يعد أي وجود لتلك الحيوانات الكبيرة التي قيل أنها كانت توجد في العصور الماضية حتى إنني لم أشاهد سوى أفعى من النوع المتوسط ، وقليلًا من الغزلان والابقار البرية الصغيرة الحجم ، وبعض الطيور وخاصة طيور الحباري التي يتفنن البدو في اسقاطها بالحجارة التي هي أشد فتكاً من البنادق التي يحملونها ، وكميات هائلة من البراغيث التي تقلق الراحة بدرجة لا يمكن تصويرها .
ستلاحظ لأول وهلة إذا نظرت لادق الخرائط الخاصة بافريقيا أن السواحل الغربية لخليج سرت قد صورت على أساس أن البحر يمثل في هذه المنطقة ، بوغازا أو خليجاً ممتدًا من الشمال إلى الجنوب لمسافة تقرب من خمسين ميلاً

وبعرض يتراوح ما بين اثنين إلى أربعة أميال حتى أن دان فيل D'Anville اطلق عليه اسم خليج زوكا . أما أروسييت ولو أنه رسمه على خريطة إلا أنه لم يطلق عليه اسماما . والواقع إنني فشلت في العثور على أي أثر لهذا الخليج رغم أن خط سيرنا لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر . ولزيادة ايضاح هذه المسألة اذكر أن زميلي الكابتن لو تير Leautur ، الذي قام برحمة قصد دراسة ومسح السواحل الغربية والشرقية لخليج سرت ، لم يجد هو الآخر سبباً مقنعاً لذكر هذا الخليج الموهوم .

تعتبر جميع المناطق المحيطة بخليج سرت من الناحية التضاريسية عبارة عن مجموعة من المناطق السهلية التي قل أن توجد بها أي جهات يزيد ارتفاعها كثيراً عن مستوى سطح البحر ، وهذا تستطيع مياه البحر ، وخاصة في فصل الشتاء ، الزحف على الرمال القرية من الشاطئ وتغطية الكثير من الجهات المنخفضة حولها مكونة بذلك بحيرات كبيرة تتحول صيفاً، نتيجة لتقدّر مياه البحر وشدة البحر ، إلى مجرد أحواض منعزلة تعطيها طبقة من الملح .

وبصراحة فقد عجزت في ايجاد الاسباب التي دعت كل من
دان فيل واروس سميث الى تأكيد وجود هذا الخليج ،
ومؤكداً في نفس الوقت انه اذا كان مرجعيهم في هذا
الرأي الى استرابو ، فانا لا يساورني اي شك في أن ما قاله
هذا العلامة لا يختلف مع نظريتي اذ يقول: على الجانبي اليمين
وبعد أن يترك المسافر رأس مصراته توجد سبخة كبيرة
تنتهي الى خليج به بعض الجزر الصغيرة . ان ترجمة خليج
بما يعني السبخة خطأ وهو ما وقع فيه بعض الذين نقلوا
عن استрабو ، وان الامر لا يعود الا أن يكون القصد
بذلك الخليج هو ما نعرفه اليوم بسبخة تاورغاء .

وصلنا بعد مسيرة تسع ساعات الى مكان يعرف
بالزعفران حيث توجد بعض الآبار وتنمو الكثير من
الخشائش والزهور ، وكانت هناك مخلفات تدل على أن مجموعة
من البدو كانت تقيم في هذا المكان الذي تركته على ما يظهر
لما عرفت بخبر الحملة الامريكية لم يلق استحساناً من البي .

من الزعفران الى امارات

صادفنا بعد مسيرة ساعة واحدة من الزعفران عموداً مرتفعاً عليه بعض الكتابات التي لم يعد بالإمكان قراءتها . وبعد مسيرة ساعة اخرى كان هناك عمود مشابه للأول ثم وعلى بعد نفس المسافة وجدنا عموداً ثالثاً لم يكن بالإمكان قراءة ما عليه من كتابة ونقوش هو الآخر . كما توجد على ساحل البحر مقابل العمود الأول وفي مكان يدعى البنينا El Benina القديم ولا السر وراء اقامة هذه الأعمدة الثلاثة .

ان ما يحيط بمنطقة الزعفران من نباتات وزهور ، وما يتوفّر بها من مياه عذبة يجعلني اعتقد ان هذه المنطقة كانت احدى المناطق المأهولة قديماً مما يحيط احتمال وجود تلك

المدينة التي اطلق عليها كل من استرابو وبطليموس مدينة اسبي Aspi ، والتي يقول عنها استрабو بالذات انها تقع مباشرة بعد انتهاء سبخة تاورغاء ، هذا بلاضافة الى ان تحديد اروسميث لموقعها لا يختلف مع مكان هذه القلعة . فاذا صح هذا وكانت الزعفران هي مدينة اسبي القديمة فان مكان القلعة لا بد وأن يكون ميناوها كما يذكر استрабو . اما بخصوص الاعمدة الثلاثة فاني اميل الى الاعتقاد انها تمثل مكان الحدود بين البطالمية والقرطجنيين .

لا اظن انك تتصور أن النبي من الجهل بحيث لم يسمع في حياته عن مدينة بتسرج ، وانني قضيت ساعة كاملة احاول ان اشرح له فيها كيف يعمل الترمومتر والغرض منه . صادفنا في مكان يدعى نعيم Nehim ، حيث المراعي جيداً والمياه ممتازة ، بعض القبائل البدوية ولما كانت ابلنا وجيرا دنا منها فقد أمرنا النبي بوجوب استبدالها من ممتلكات هذه القبائل التي لم يكن بإمكانها افعل أي شيء سوى شكر النبي على تشريفه لهم بالزيارة (الزعفران منطقة غربي سرت ببعض كيلو مترات) .

عمل الحجاج في هذه المناطق الصحراوية على تحديد

بعض معالم الطريق بوضع أكواام من الحجارة ، وعلى مسافات مختلفة ، حتى يضمنوا عدم التعرض للهلاك في مثل هذه الجهات المغفرة . وفي أحد الأيام قابلنا سرب من الجراد كاد يغطي قرص الشمس ، وفي هذا المجال يحدثنا التاريخ ان قبيلة نسموني Nasamoni كانت تفرح وتهلل لظهور الجراد الذي يأكلونه بعد تحفييفه في الشمس ، وقد استغربت حين رأيت احفاد تلك القبيلة لا يزالون يقومون بنفس الفعل فقد جمعوا الكثير منه وأكلوه بشهية بعد شويه على النار .

وصلنا في الخامس من مارس ١٨١٧ الى المنطقة الفاصلة بين طرابلس وبرقه وعلى الرغم من تعب الجميع وقلة المياه إلا أنها كانت مناسبة سر لها الجميع .

ازدادت الفوضى وقل امتنال الاوامر مع استمرار ازدياد عدد الجيش مما حمل الي على التدخل آمراً بوجوب تشديد وتنفيذ الاوامر ، وبوصولنا إلى مكان يعرف برقه Barga شعرنا بنوع من الراحة لا بسبب تغير المظاهر التضاريسية فقط ، وانما لامل انتهاء ما كنا ن تعرض له من

العواصف الرملية الشديدة التي كادت تؤدي وفي أكثر من
مناسبة الى ردم معسكرنا كاملاً .

مرة ثانية أود ان أؤكد ان ذلك الخليج الذي تظهره
خرائطه اروسيث في هذا الجزء من خليج سرت لا وجود
له هو الآخر وان كل ما في الامر ان احدى السبخات
الكبيرة ، التي توجد قرب الساحل ، قد اخذت على انها
ذلك الخليج الذي لا وجود له .

ذكر العديد من الجغرافيين الاوائل ان جبال اطلس
تمتد حتى هذه المنطقة رغم اني لم اشاهد ما يؤيد هذا
الرأي ، وكذلك فيما يتعلق بما ذكره اروسيث الذي
رسم على خريطته نهرآ صغيراً في هذا الجزء من خليج
سرت، فالم منطقة لا تزيد عن كونها صحراء جرداء وطبيعياً
الآن يكوت بها أي دليل على وجود مثل ذلك النهر .
استطيع أن أؤكد بناء على ما شاهدته وبجانب
قراءاتي الخاصة أن الحد الجنوبي لخليج سرت هو
في الواقع أكثر جنوبية من الحد الذي تحدده أحسن
الخرائط المعروفة لأنني عجزت عن تحديد مكانين

يحددان نهاية الخليج وفي هذه المنطقة بالذات ، إذ
ليس ثمة أثر لما كان يعرف بقلعة او تومالا
، كما اني لم اجد أي أثر لقبر الأخوين
فيليبي اللذين يقول عنهما بطليموس انهما دفنا
في الرمال .

الوصول الى مارات ؟

المكان المفضل لمرور القوافل هو مركز مارات التي تتوفر بها المياه والتي يخرج منها طريقان يتوجه الاول بحذاء الساحل الى بنغازي ، ويتجه الثاني نحو الداخل مخترقاً اقليم البنتابولس ومتوجه الى البحر عند درنه⁽¹⁾ توجد في اقليم برقة وفي النطاق الجبلي بالذات العديد من العيون المائية ويتتوفر المراعي ويزداد عدد القبائل البدوية التي من عادتها ارسال كبار قومها الى ملاقة البي

⁽¹⁾ يقصد بقرية او مركز مارات امربي المكان الذي توجد به اليوم مدينة اجدابية وذلك لما يظهر من الوصف ومكان القرية على الخريطة .

وتقديم (البرنوص) والاتاوة المستحقة عليها . أما القبائل التي لا يكون بامكانيها دفع الاتاوة فتصبح ملزمة بمراجعة جيش الي وعلي أن تبقى هكذا الى حين استطاعتها توفير ما يجب دفعه ، والي حيث يقوم بهذا العمل اما يهدف الى تحقيق غايتين : الاولى هي ضمان حصوله على الاتاوة والثانية ضمان عدم اشتراك مثل هذه القبائل في الثورة التي يقودها أخوه .

وصلنا بعد مارات الى مكان يعرف بقصر دوقا حيث لاتزال هناك الكثير التي تمتد لمسافة ميلين تقريباً (لعله يقصد المنطقة التي تعرف حالياً بالزوبيبة) ، والى الشمال من هذه المنطقة تصادفك وفي أكثر من مكان واحد بقابايا أثرية متنوعة مما يدل على ان المنطقة كانت آهلة بالسكان في يوم من الايام .

نحن الان في منطقة بنغازي : المنطقة السهلية الواسعة التي تسكنها مجموعة من القبائل البدوية التي كانت تسرع في مقابلة الي وتقديم البرنوص والامدادات من جند ومؤونة .

في منطقة الجبل الأخضر

قضينا يومين قبل الوصول الى الابياد التي بلغناها في الخامس من شهر مارس ، والابياد تمتاز بموقعها الجميل وغنى المرعى ووفرة المياه التي يحصل عليها من الابار القديمة التي قد يصل عمق بعضها الى اكثر من مائة قدم ، اما التلال التي تحيط بها فتغطيها اشجار الصنوبر التي كانت تعتمد عليها مدينة قورينا فيما تحتاج إليه من وقود .

جمع النبي رؤساء القبائل وطلب منهم العمل على مساعدته في تعزيز جيشه وتأييده الكامل فيما جاء من أجله . يحيى الرجال حياة الكسل في أتم صورها باستثناء القلة الذين يقومون بصيد النعام الذي يكون جزءاً هاماً من تجارة

بنغازي ، في حين تقوم النساء بجانب وظائفهن الرئيسية بعمليتي غزل ونسيج الصوف ، وعموماً يشترك الجميع في كره النظافة وهذا ما ساعد على انتشار الكثير من الامراض بينهم . زارنا السيد جاكمو روسيني Gacomo Rossini اخ القنصل البريطاني في مدينة بنغازي وكان برفقته ضابط مالطي جاء قصد الاتجاه بالماشية ، والواقع ان زيارتها قد خلقت في نفسي نوعاً من الراحة لأنها اول اوربيين اقابلهم منذ مغادرة طرابلس .

جاءت الاخبار لتعلن للبي ان اخاه غادر درنه متوجهاً نحو الحدود المصرية ومنها الى القاهرة لاعتقاده ان باشا مصر سيقدم له ما يحتاجه من مساعدة في حالة استمرار تتبع جيشه . كان الصيف على الابواب وكان على البي أن يحدد الطريق التي سيسلكها في متابعة أخيه ، وبالفعل ، قرر بعد استشارة المقربين إليه موافقة اختراق هضاب الجبل الاخضر ليتمكن من جمع الآتاوة من القبائل التي تسكن هذه الجهات وحتى يمكن أيضاً من قضاء الصيف في مكان قوريقه القديمة . كانت فرحتي لا تتصور صباح يوم ٢١ ابريل وهو اليوم الذي بدأنا فيه رحلتنا الى قوريقه

التي ذاعت شهرتها بين الاقدمين . انقضت اربع ساعات قبل وصولنا الى المكان المعروف بالبنت El Bent حيث تقوم احدى القلاع الاثرية التي تغطي جدرانها كتابات قديمة ليست فينيقية ولا رومانية والتي لم اتمكن من اعادة نقلها لما أصابها من تلف ، كما توجد أيضاً مجموعة كبيرة من المقابر التي تسكنها اسراط لا تحصى من الحمام البري . الطبيعة جميلة للغاية والمظاهر التضاريسية متنوعة بدرجة تلفت النظر ، وكلما قربنا من قوريئنه ازدادت بقائها الآثار وازدادت روعة النمط المعماري ايضاً .

وصلنا الى جردس بعد رحلة سبع ساعات ، والذي يلفت النظر في هذه المنطقة كثرة بقائها الاعمدة التي لا بد وانها كانت مستعملة في تشييد ما كان هناك من مبني . ومن جردس كان طريقنا الى زلنطة حيث قبر الولي المشهور سيدى محمد الحمرى الذي زاره الجميع بعد ان أمر النبي بنحر ثور وتوزيع لحمه على مساعديه باستثنائي أنا طبعاً باعتباري غير اهل لمثل هذا الشرف . لقد فكرت في الأمر كثيراً ثم تسللت ، بعد تغيير ملابسي ، وسط الجموع ووصلت الى داخل الضريح حيث وجدتهم قد أعدوا

أحسن واشهرى وجيبة تناولتها طوال الرحلة .
كانت المنطقة ولمسيرة عدة ساعات تتخللها بقايا الكثير
من الآثار والقبور مما يدل على أنها كانت عامرة بالسكان ،
وعلى الرغم من أن المنطقة تكاد تكون مهجورة حالياً إلا أنك
ستلحظ خصوبة الأرض وكثرة أشجار الزيتون البري .
ان جمع محصول الزيتون وتصنيعه كفيل ، إذا ما صدر
إلى أحدى الأقطار الاوربية ، أن يزيد من ثروة المنطقة .
إلا ان استعمال البدو للزبد بدليلاً عن الزيت بالإضافة إلى
جهلهم لا يسمح اليوم باستغلال شجرة الزيتون التي
يشار إليها الاهتمام كل من أشجار التين والخربق . وعلى
الرغم من عدم وجود أي نوع من الزراعة إلا أنني متتأكد
ان هذه الجهات أكثر خصوبة وانتاجية من أي منطقة
مستغلة من بلادنا .

ان أكثر ما يدهشني هو اهمال هذه المناطق على الرغم
من خصوبتها البالغة ، واعتدال مناخها وجود الشواهد
الاثرية على مدى غناها في القديم . وبصراحة فانا لا أفهم
لماذا تستغل القوى الاوربية فرصة الحروب الصليبية
وتحتل هذه المنطقة لتكون منها مستعمرة غنية وذلك

باتباع سياسة الشعوب الاوربية القديمة التي تمكنت من احتلالها وتركت عليها آثارها التي ولا شك ستكون شاهد عيان لمن يجيء من القوى الاوربية . ان أي بحار ايطالي يجوب منطقة البحر المتوسط الجنوبي ترتعد فرائضه اذا لاحت له سواحل هذه المنطقة ، فهو برباح الشماليه بالنسبة لاي بحار ، تحمل معها امكان وصوله الى هذه السواحل وانهاء حياته في الاسر . والآن دعنا نناقش ما هناك من عراقبيل قد تمنع مختلف الحكومات الاوربية من قيام مستعمرة لها على هذه السواحل الغنية . انه بالتأكيد ليس المخوف من قوة وشراسة سكانها الذين لا يشكلون خطراً الا بالنسبة لمجموعات الحجيج التي تعبر هذه الجهات والتي يعاملونها كأنها قطعان من الغنم . فالمخاوف التي تقوم حول سكان هذه المنطقة ليس لها أساس من الصحة اذ ان الجزء المأهول والذي يمكن استغلاله ما هو الا شريط ضيق نسبياً وفر له قرب صحراء سرت والصحراء الكبرى من الجنوب عوامل حماية طبيعية يصعب بل يستحيل اختراقها على اي مجموعة يمكنها ان تهدد أمن المنطقة . وبالمثل وفرت صحراء مصر عاماً طبيعياً آخر يصعب اختراقه ويمكن توفير

الحراسة على الأجزاء الشهالية منه . أما بالنسبة لخط الساحل فهذا هو الآخر لا يوفر مناطق غزو سهلة باستثناء بعض الموانئ الصغيرة التي يمكن فرض الرقابة والحماية عليها . وفي هذا ما سيعمل على توفير الأمان لأي قوة أوروبية وخاصة وأن الانتاج الرعوي الحالي سيكون بامكانه توفير المستلزمات الأولية للقادمين الجدد ، والسماء وحدها عليها أن تمنع ما يحول دون تحقيق مثل هذه الفكرة التي أود صادقًا في حالة تفريذها الا يلتجأ القوم الجدد الى استخدام وسائل القوة كما حصل مع المستعمرين القدماء ، لأن في بقاء البدو على حالي ضمان لتوفير الخامات التي ستكون أساس بناء نهضة المستعمرة الجديدة . ومن رأيي أن طبيعة المنطقة ونوع التربة سيجعل بلا مكان قيام زراعة اشجار العنبر ، وزراعة اشجار النخيل على الهضاب الجيرية وعلى طول الشريط الساحلي . كما أن وفرة المراعي في الاودية العديدة سيجعل من السهولة توفير العلف لعدد أكبر من الحيوانات التي يستحسن استمرار ملكيه البدو لها لأن في استمرار هذه الحرفة ما يؤدي الى زيادة الثروة الحيوانية بجانب العمل على كسب صداقه البدو وتأييدهم للمستعمرة الجديدة .

اشتهرت برقة في القديم بجودة أصواتها اكثراً من أي بلد آخر ، وبالفعل فان الصوف الحالي تفوق جودته أحسن الانواع في بلادنا . أن وظيفة المستعمرة الجديدة لا يجب ان يكون في التناحر والقتال مع السكان الوطنيين ولكن في احترام عاداتهم وتقاليدهم وقيام بعض الصلات الطيبة معهم لأن احترام دينهم وتشجيعهم عليه سيؤدي حتى الى صقل أذهانهم وبالتالي سيعمل على قيام صلات قوية معهم في المجال الاجتماعي .

انني لا أعتقد ان مثل هذه الخطوة يمكن وصفها بأنها فرض مستعمرة متقدمة على قوم من البدو ، فنحن وان كنا نفتقر الى الدراسة الكافية عن التنظيمات السياسية لسكان برقة القدماء الا اننا نملك الكثير من المعلومات عن مدى ثروتهم ورفاهيتهم ومدى قوتهم أيضاً . فالآثار العظيمة التي لا يخلو منها مكان تعطى دليلاً مادياً على هذا ، وخاصة وأنه بات من المؤكد أنه خلال فترة حكم الاغريق الزاهرة كانت هناك مجموعات من البدو تعيش فوق روابي برقة وتمارس حياة الرعي . أن ما خلفه هيرودوت عن وصف أولئك البدو ينطبق كلية على سكانها اليوم . فما ذكره

هيرودوت وبعض الجغرافيين يؤكّد لنا إن منطقة روابي
برقة كانت هي الميدان الوحيد لسكن وتنقلات القبائل
البدوية في العصور القدิمة: إنها المنطقة التي قامت فيها
المدن المزدهرة مثل قورينة وبرقة رسوسنة وتوكرة وطلمثية ،
وفي الاستدلال بهذه الأقوال ما يعطينا الدليل على أن ثراء
وازدهار تلك المدن إنما قام بجانب مجهودات سكانها ، على
ما كانت تحصل عليه من وفرة الانتاج الرعوي . إنني آمل
ومن كل قلبي أن يعطي هذا الانتاج ومن جديد ما كان
يوفره من مصادر ثروة في هذه المنطقة الخلابة التي يمكن
أن توفر مصادر جديدة للصناعة وقيام اتصال بحري مع
موانئ بلادنا .

في الطريق الى قورينة

يتفرع بالقرب من ضريح سيدى الحمرى طريقان
يسير الأول غرباً الى بنغازى ويخترق الثاني المنطقة الجبلية
الى قورينة ودرنه . وكما كان هم الي جمع اكبر قدر من
الاتوات فقد تأخر وصولنا الى قورينة الى شهر مايو .
اكتشفت اثنتين من العيون المائية في منطقة سباج
الواقعة شمالي شرقي زلنطة . ولما كانت هذه هي
أول مرة اشاهد فيها العيون المائية ، على الساحل الافريقي ،
فقد اسرعت لاخبر الي الذي ضحك مني واعتبرني مجرد
كاذب .

حدثت في هذا المكان ظاهرة خطيرة اقلقت بال

الجمييع فقد ماتت الكثير من جمالنا رغم الأحجبة العديدة .
ولا أخالني فخوراً اذا قلت اني قد اكتشفت بالصدفة احدى
النباتات السامة التي تتطبع علىها جميع الاوصاف التي ذكرت
حول نبات السلفيوم الذي كان سكان برقة يقمون
باستخراج عصير من جذوره لتصديره الى الخارج ، والذي
وصفه المؤرخ بليني بأنه ذلك النبات الذي يحمل الغنم على
النوم ويترك الماعز يعطس بعد اكله . لقد عمل البدو على
تدمير هذه الشجرة الصغيرة على اعتبار انها سامة ولعل هذا
هو السر في ندرة هذا النبات الذي كان يشكل دخلاً هاماً
لبرقة حتى ان حكامها قاموا برسم صورته على بعض أوجه
العملة التي كانت متداولة ، والذي وصفه أحد مختصي علم
النبات بقوله : للسلفيوم جذور سميكه تحوي عصارة
وفيرة لها خصائص طبية وأنه يوجد في ضواحي قوريقة
وحوال خليج سرت قرب حدائق أيوسبريدس
Gardens of Eusperides ، والذي اشار اليه استرابو بذكره
استخراج العصير من جذوره . اني مؤمن ان اندثار هذا
النبات قد تم نتيجة لغزو القبائل البدوية لهذه المنطقة .
وعلى ما اذكر فقد قرأت مرة أن هذا النبات قد وجد مرة

في عهد الامبراطور نيرون حين أرسل اليه على اعتباره شيء نادر الوجود . وقد اخطأ الكثير من الباحثين في تصنيف هذا النبات ، الذي كان يحمل اسم السلفيوم دائمًا ، حتى أن بعضهم يذكر أن (عصير برقة) والسلفيوم انتاجان مختلفان .

خبرنا كثير من الكتاب الثقة أن السلفيوم نبات يقتصر وجوده على برقة حتى أنها كانت تعرف باسمه في بعض الأحيان . أن هجرة هذا النبات إلى جهات أخرى واندثاره كلية يصعب على قبوله ويجعلني أو من أن النبات الذي عثرت عليه هو بعينه نبات السلفيوم الحقيقي . لم يكن من الصعب اقناع أبي بترك المنطقة التي توجد بها هذه النباتات الضارة . ولهذا فقد رحلنا في اليوم التالي إلى سلوق وعسكرنا قرب اثنتين من العيون العذبة حيث يتتوفر بالإضافة إلى ذلك جمال الطبيعة واعتدال المناخ وخلو المنطقة من النباتات الضارة وهو ما ترك أثراً كبيراً في نفس

البي الذي قرر اقامة معسكر له في هذه المنطقة ^(١) .
كان لا بد أن افكر في وسيلة تمكنني من زيارته قورينه
و خاصة ونحن لا نبعد سوى مسيرة ثلاثة ساعات عنها رغم
أن فكرة اغتيالي من قبل أي بدو يسيطر على ذهني
باستمرار ، وفي هذا ما جعلني اطلب مساعدة البي الذي
وفر لي اثنان من الشواش ولكن بشرط ان اكافئهم على
خدماتهم . تقوم المئات من القلاع الدفاعية على طول
الطريق رغم اني لم اعرف ما إذا كانت وظيفتها توفير
عامل الدفاع والحماية ضد هجمات القبائل البدوية أم أنها
 مجرد حصون للدفاع عن سلامة المنطقة بغض النظر عن
نوع الخطر ومصدره . بعدقضاء يوم كامل في قورينه ،
التي كانت تمثل أهم معالم الحياة وال عمران في برقة ، كان علي
ان اعود الى المعسكر خوفاً على حياتي ، وبعد مسيرة
ثلاثة ساعات من زيارتي الثانية لكورينه وصلنا الى أبولونيا

١ - هنا يخطىء المؤلف بوضعه سلوقي بين منطقة سidi الحموي
وقورينه والصحيح أن سلوقي تقع في سهل بنغازى وليس على
الجبل الأخضر .

(سوسة) التي كانت إحدى الموانئ القديمة والتي تكثر بها هي الأخرى بقايا الأعمدة والمنازل وبقايا المجاري المائية الصناعية التي كانت توصل المياه إليها كما هو الحال بالنسبة لتلك المجاري التي كانت تزود حاجة قوريته من المياه .

في إحدى المرات وبعد رجوعي من قوريته قابلني الذي كان لطيفاً في معاملتي حتى انه سألني عما إذا كنت قد عثرت على كنز ما . كان جوابي بلا حجاب واضفت انه اثنى كنز يمكن ان اعثر عليه : انها عين كبيرة ماؤها عندي و تستطيع توفير كامل احتياجات جيشنا بما في ذلك حاجة جميع البدو الذين في رفقتنا . ظهر الاندهاش على السبي وأظهر كامل استعداده لمراقبتي في اليوم التالي ليتأكد بنفسه من هذه الظاهرة الفريدة التي أخبرته عنها ، والتي ما كاد يشاهدها حتى أصدر أوامره بانتقال كامل المعسكر للاقاته بقربها . كان الجو متواتراً فقد كان جيش الذي نظرارده معسكراً في درنه وكان على البي أحمد أن يعمل باستمرار على نشر الاخبار الخاصة بعزميه على ملاحقة أخيه الذي يظهر انه لم يعد يطمئن على سلامته في درنه مما جعله يقرر تركها والانتقال الى منطقة خليج

بكيه . كانت هذه الاخبار التي وصلتنا يوم ٢٠ يونيو أكثر من أن تكون مشجعة لقائد حملتنا الذي أصدر أمره بوجوب التحرك السريع لمتابعة أخيه . في صباح اليوم التالي كات الركب في طريقه الى القبة التي اقمنا فيها بعض الوقت لعدوته ووفرة مياهها ، ثم تابعنا السير في منطقة صعبة للغاية أدت الى فقدان بعض جيادنا .

مدينة درنه

تقع درنه في سهل ضيق موفر الخصوبة ، وتحيط بها مجموعة كبيرة من الحدائق المليئة ب مختلف اشجار الفاكهة ، وتحصل على حاجتها من المياه عن طريق اثنتين من العيون في وادي درنه تعرف احداها بعين درنه ، وتعرف الثانية بعين أبو منصور .

تتوفر الامكانيات في درنه لحياة مجموعة كبيرة من السكان ، فاحتياجات اللحوم واللبن يوفرها العرب الذين يرعون حيواناتهم على حافة الهضبة ، أما الحبوب والخضار فترعرع محلية وبكميات كافية ، كما يقوم بعض السكان بلا تجارة في العسل الذي يكثر في الجهات الحبيطة بالمدينة ولكن رغم هذا فالحياة في درنه يعكس صفوها عدم

استقرار الامور إذ كثيراً ما تغير عليها وتنبهها القبائل
البدوية التي تحظى بتاييد الحاكم لها .

نزل البي قلعة كبيرة وسط المدينة التي كان قد أصابها
وباء أدى إلى تخفيض عدد سكانها من سبعة آلاف إلى عدد
لا يزيد كثيراً على خمسائة شخص فقط . كانت الولايات
المتحدة ترغب في إحدى الفترات ، في اتخاذ درنه قاعدة
لها ، وحين رفض طلبها لجأت ، مع توفر بعض الأسباب
الآخرى ، إلى محاصرتها والاستيلاء عليها ، ثم ولاسباب لا
أعرفها ، قررت تركها بعد فترة وجيزة مخلفة وراءها
بعض المدافع وطاحونة مائية لا تزال مستعملة ”^(١) .

(١) الواقع ان موضوع احتلال درنه من قبل الامريكيين
بمعاونة البي أحمد أخي يوسف القره مانلي باشا طرابلس موضوع
يظهر أن المؤلف لم يكن يعرف عن تفاصيله أي شيء . فقد
احتلت درنه في بداية سنة ١٨٠٥ ثم جلت عنها القوات الامريكية
حسب الاتفاق الذي ابرم بين يوسف باشا والحكومة الامريكية
بتاريخ ٤ يونيو من نفس السنة . (لمزيد من الايضاح راجع كتاب
انهيار الاسرة القره مانلية ، تأليف الرزمي عمر بن اسماعيل من
صفحة ١٠٠ الى صفحة ١١٦) .

أدى صغر حجم ميناء درنه ، وعدم توفر الحماية التي تحتاجها السفن في الظروف الجوية الصعبة مضافاً إلى ذلك ، وبنفس الأهمية ، صعوبة الاتصال البري مع الداخل إلى تقليل أهمية هذا الجزء من الساحل في نظر المستعمرين الأوائل . وبالمقابل يوجد بين درنه وسوسة خليج كبير توفر له الحماية الطبيعية أكثر من غيره من جهات هذا الساحل ، وفي ظني لابد أن يكون **هذا الميناء** (رأس الهرال) هو ما كان يعرف بميناء NauStadmos .

تأكد للجميع في درنه مدى وحشية وقسوة البي محمد فقد كانت أرضية القلعة لا تزال مغطاة بدماء وجثث العديد من القتلى الذين كان في مقدمتهم أكثر ما كان لديه من جواري لانه على ما يظهر ما كان ليسمح ان يملك غيره ما كان في حوزته مضافاً إلى ذلك ما قد يسبب له من تأخير في الرحيل . وكان من ضحاياه أيضاً العديد من أفراد تلك القبائل التي كانت موالية له والتي تخلى بعضهم عنه لما عرفوا بوصولنا .

جاءت القبائل القرية لتقديم فروض الولاء والطاعة لقائد حملتنا الذي أظهر لهم عطفه وطلب الى بعضهم

تأكيد ولائهم بالعمل على ارسال وفد من عشرين شخصاً من كبار قومهم ليرفعوا ولائهم الى والده باشا طرابلس . لقي هذا الاقتراح قبولاً من الجميع وفعلاً ارسل الوفد دون أن يدرك الجميع ان في الامر مؤامرة تدبر .

ترك استيلاؤنا على درنه وخضوع جميع القبائل دون اللجوء الى استعمال القوة اثراً سيئاً في نفس الاخ الشائر حتى انه قرر مغادرة المنطقة نهائياً واللجوء الى القاهرة في حماية البasha محمد علي الذي تربطه به صلة الرحم . شجعت هذه الاخبار السارة الي أحمد على ترك درنه ومتابعة السير الى خليج عبيه حتى يتأكد نهائياً من فرار وانهزام أخيه . يحدد المغارفيون على هذا الخليج ميناء ميناالاوس الذي ذكره أيضاً كل من هيرودوت واسترابو وبطليموس، ومع هذا فلم اتمكن خلال اقامتي القصيرة من العثور على أي من بقايا السكان الاقدمين رغم وصولهم الاكيد الى هذه الجهات ولو ان بعض البدو أكدوا لي وجود بحيرة بوسطها جزيرة صغيرة مليئة بالبقايا الاثرية الى الجنوب من خط الساحل الحالي .

المحدود بين طرابلس ومصر ليست واضحة المعالم

بسبيب بعدها عن مركزي الحكم في طرابلس والقاهرة ،
ولهذا فلا غرابة أن تتحول هذه المنطقة الى مأوى أمنين
للقتلى واللاصوص الذين قل ان ينجي الحجاج من الوقوع بين
أيديهم ، واكثر من هذا ، تكن هؤلاء في السنوات القليلة
الماضية من التعرض لقافلة عم حاكم المغرب التي تتكون من
ثلاثة آلاف شخص والتي تم نهبها رغم هذا العدد الكبير من
الرافقين ، أما في غير أوقات الحج فيحترفون الاتجار في
الماشية التي ينهبونها من القبائل المستضعفه .

وصلت حملتنا الى نهايتها السعيدة لا لأننا لم نلق أية
مقاومة من ساعة خروجنا من طرابلس بل وهو الامر لما
اظهرته جميع القبائل من ولاء وتعلق بالحاكم الجديد
واستمرار تبعيتها لباشا طرابلس ، وفي هذا ما جعل الي
أحمد يقرر سرعة العودة عن طريق الابيار ومنها الى
بنغازي حيث كان على ما يظهر في شوق وعلى اتم استعداد
للاحتفال بشهر رمضان .

مدينة بنغازي

تقع مدينة بنغازي على حافة السهل بالقرب من خليج صغير لا يتسع في العادة إلا للمراتب الصغيرة بسبب ما يعرض مدخله من صخور كثيرة تحول دون وصول المراكب الكبيرة وخاصة أيام العواصف مما يضطرها إلى الرسو على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من الميناء المذكور .

توجد خلف المدينة بركة ، كثيراً ما تظهر بها أسراب الطيور البرية ، وتتصل هذه البركة مع البحر بمنفذ ضيق لا يسمح بمرور غير مراكب الصيد الصغيرة . فإذا صح أن مدينة بنغازي تختل بالتقريب مكان برنسيشي القديمة

حيث لا تزال بقايا الكثير من الآثار ، فان هذه البركة لا بد وأن تكون سبخة Tritonis التي ذكرها المؤرخ استرابو ولكن مع اختفاء الجزيرة التي كانت تتواطئها وعدم ظهور معبد فينيوس الذي كان قائماً فوق تلك الجزيرة . وكما اختفت تلك الجزيرة والمعبد فانني لم الاحظ أثر لمجرى نهر الليتي الذي قيل انه ينتهي الى هذه البركة . لعل مضي الزمن هو الذي أدى الى تدمير المعبد وإزالة الجزيرة التي كانت تضمه ، أما بخصوص النهر فانني وبالتأكيد لم استطع ان اجد أي أثر لاي مجرى مائي ما بين بنغازي وحافة الجبل . وهنا لا بد ان اشير الى ان اطلاق لفظ النهر عند القدماء يجب أن يؤخذ بحذر وخاصة في منطقة جافة كهذه ، لأنني شاهدت اطلاق هذا الاسم على أي مجرى منها بلغ صغره والذي بكل تأكيد لن تجد له أي أثر خلال الفصل الجاف من السنة .

لاحظت في المنطقة السهلية المحيطة بالمدينة وجود بعض اشجار النخيل وبعض الرقع الصغيرة المزروعة شيئاً ، أما فيما عدا ذلك فان باقي المنطقة يكاد يكون

خالي من السكان تقريباً . كما يرى المرء داخل المدينة الكثير من الآثار المبعثرة التي يعمل السكان على تحطيمها وبناء منازل لهم بها بعد خلطها بالطين ، أما الاسقف فتغطى بقبن البحر بعد مزجه باللوحل والطين وفي هذا ما يضطر السكان إلى ترميمها كل سنة قبل بدء موسم سقوط المطر الذي ي العمل في الكثير من الحالات على إزالة هذه الاسقف وتهدم المنازل بكاملها .

لا يختلف بيت بي كثيراً عن باقي بيوت المدينة من حيث طراز العمارة به رغم ان سطحه مزود من الجهة المقابلة للمدينة بتسع فتحات ركبت عليها بعض المدافع التي يؤدي اطلاق أي منها إلى تحطيم جزء الحائط الموضوع فوقه المدفع .

يسكن بنغازي حوالي ٥٠٠٠ نسمة نصفهم على الأقل من اليهود ، وبنغازي بجانب كونها العاصمة فأنها أقصر سكنى بي الذي يمثل السلطة المدينة والعسكرية والقضائية الذي يقوم بنفسه بتنفيذ الاحكام التي يصدرها . الواقع ان وظيفته تمثل في الدرجة

الاولى على جبائية الضرائب المالية المحففة التي بعضها محمد
ودائم وبعضاها الآخر شخصي ومؤقت . تمكنت في المدة
القصيرة الماضية إحدى القبائل البدوية من الهجوم على
بنغازى وطرد معظم سكانها ومع ذلك لم يكتفى باشا
طرابلس للأمر بل وأكثر من هذا فقد أعلن للملا شكره
العظيم لسكنان هذه المدينة الذين دفعوا له الضرائب
مرتين في سنة واحدة .

كل من نطا قدماه سواحل برقة لا بد وان يتعرض
لبعض المضايقات التي من أكثرها سوءاً حشرة الناموس .
ففي المنازل والشوارع وحتى في ضواحي المدينة ليس
هناك أكثر من هذه الحشرة التي تلقى بنفسها على أي شيء
والتي تحتاج لابعادها عنك الى محروم مضني ودون أن
يشعر أبداً . ان اي طعام بمجرد وضعه على المائدة ستغطيه
هذه الحشرات القدرة التي اذا حاولت التخلص منها فانها
ستعود في هجوم أشد وطأة وفي هذا ما دعا السكان الى
انتظار حلول الظلام ليتمكنوا من تناول طعامهم . لقد
قيل ان كثرة الماشية وما تنتجه من كميات كبيرة من اللبن

وما يصنع منه من جبن وسمن على مناطق الهضاب القرية
هي الاسباب التي أدت إلى وجود هذه الأسراب الهايلة من
الناموس . ولكن وبدون طرح هذا الرأي جانبياً ، فانا
اعتقد ان هناك سبباً قوياً داخل المدينة نفسها هو الذي
خلق مثل هذه الظاهرة ، لأنني جربت الحياة في منطقة
الجبل مركز تجمع الماشية ومع ذلك فلم أتعرض أبداً مثل
ما ا تعرض له في بنغازي .^(١)

يكون اليهود الجزء العامل بين سكان المدينة ، أما
الجزء الباقى فيعيش فى حالة شبه بطالة وعلى حساب غير
المؤمنين ، فاليهود غير مسموح لهم بامتلاك منازل خاصة
بهم وعليهم في نفس الوقت أن يدفعوا إيجاراً باهظاً مقابل
سكنى بيوت المسلمين .

تحلب القبائل التي تمارس الرعي على هضاب برقة

(١) يتكون الناموس عادة في المياه الآسنة و خاصة اذا كانت
بها نسبة من الاملاح كما هو الحال في معظم الاشباح الحبيطة
بنغازي ، ان هذا التفسير ليس بخاف على الكثرين وفي جهل
دي شيئاً وهو طبيب بهذا الأمر مايدعو الى الاندهاش .

اعداداً كبيرة من الماشية والحيوانات الأخرى لتسويقها في المدينة بجانب كميات هائلة من الصوف والزبد والعسل وريش النعام . أما ما يشترونه منها ففيتمثل أساساً في البنادق ومسحوق البارود والملابس المصنوعة في طرابلس بجانب الحاجات المنزلية الأخرى . كما تقوم بين بنغازى ومالطه تجارة واسعة في الماشية في حين ينقل الصوف إلى طرابلس لصنع الملابس والسجاجيد ، أما ريش النعام فيمكن أن يكون جزءاً هاماً من تجارة المنطقة لو أن التجار الأوروبيين يستطيعون شراء هذه السلعة من البدو مباشرة وهو مالا يمكن تحقيقه لاحتكار التجار اليهود لهذه السلعة مقابل دفع مبالغ كبيرة لباشا طرابلس . وعموماً يحصل التجار اليهود بعد تصدير هذه السلعة إلى مرسيليا على أسعار لا تقل بحال عن ثلاثة أمثال سعرها الأصلي .

توجد العديد من الأعمدة الأثرية التي لا تزال قائمة في أكثر من مكان واحد حول المدينة ، هذا بجانب ما يوجد من النقود الأثرية وأدوات الزينة الذهبية والفضية كما توجد

بين حين وآخر بعض الاحجار الثمينة والجواهر . وقد استطاع روسيني نائب القنصل британский جمع الكثير من الاحجار الثمينة التي يحضر بعضها إليه البدو مقابل دفع التعويض المناسب ، أما الباقي ، وهو الغالبية ، فقد وجدت في أماكن مختلفة من بندغاري نفسها .

عوده الى الجبل

استغلت فرصة اقامة الجيش في بنغازي لأقوم ببعض الرحلات القصيرة الى الجبل الاخضر ، فبعد مسيرة أربع ساعات من المدينة يصل المسافر الى مكان يعرف بعين الزيانة التي بعد ترکها بساعتين تظهر آثار دريانة التي تذكرني بالامبراطور ادریان والتي مع الاسف قد تحولت الى كومة من الاتقاض . واسم دريانة ولو انه سقط ذكره عند بعض المؤرخين إلا ان المؤرخ بيونتجر يسميهما ادريانة بولس (مدينة دريانة) . بعد دريانة تجيء برسس التي كانت في يوم من الايام آهلة بسكانها المغاربة الذين تمكّن البدو من اجلائهم عنها لحاجتهم لمياهها العذبة والتي بعد

تركها بثلاث ساعات تقابل توكرة التي غير البطلة
اسمها الى ارسينوي Arsinoe الذي اهمل مع الزمن ليحل
 محله الاسم الحالي توكرة التي يوجد بينها وبين حافة الجبل
سهل فسيح يصلح للزراعة ، ويحيط بها سور مربع الشكل
يبلغ طوله حوالي ميلين ويظهر و كانه برج كبير للمراقبة
رغم ان بعض اجزائه قد أخذت في السقوط وخاصة من
الجهة المقابلة للبحر .

و توكرة رغم وجود سور حولها عبارة عن كومة
من الانقاض باستثناء بعض المبني القليلة التي لا تزال قائمة
والتي منها القلعة والمعبد وتلك النقوش العظيمة التي
تغطي معظم الجدران الداخلية لسور المدينة والتي على ما
اعتقد تشرح تاريخ المدينة منذ نشأتها

يحدد هيرودوت مكان توكرة بوقوعها على ساحل
البحر وقريباً من برقة (المرج الحالية) . الواقع أن مدينة
برقة ، الواقعة على الجبل ، لا تبعد عن مكان توكرة إلا
ببعض أميال . أما استرابو وبطليموس فيتفقان في تحديد
مكانها ما بين طلميشة وبنغازى الحالية . وهكذا يتضح أن
جميع الآراء تتفق اتفاقاً تاماً في تحديد مكان هذه المدينة

الاثرية الامر الذي يحمل إحدى اشكالات الجغرافية
القديمة . ولكن كيف نفسر ما يرويه الرحالة جيمس
بروس الذي ذكر انه زار آثار Arsinoe ولم يجد فيها ما
يستحق الذكر ، وهنا لا يجب أن نحكم مقدماً على رواية
هذا المغامر بعدم الصحة ، لأننا إذا تتبعنا مسيرته ووصلنا
معه الى طلميطة التي يصفها بأنها مدينة محاطة بسور لا
ترال مبنائية وبواباته كاملة ، وان الأجزاء الداخلية من هذا
السور تعلوها الكثير من النقوش ، وأنه يذكر بل ويحدد
مكان بعض الآثار التي لا تزال قائمة . ان أي مرجع
يؤكد أن طلميطة ليس بها هذا السور الذي يذكره بروس
وان الذي حصل هو انه عند تدوين ملاحظاته كان يعني
توكرة وليس طلميطة ، لأن ما ذكره من آثار داخل السور
المذكور هي في طلميطة وليس في توكرة التي قال عنها انه
لم يوجد بها ما يؤكّد سبق تاريخها . ان هذا يعني ان بروس
كان يقصد ذكر توكرة للمدينة المسورة وليس طلميطة التي
أصاب في تحديد ما ذكره بها من آثار .

أكّد لنا كل من استرا أبو وبليني وغيرهم من الجغرافيين
القدماء أن طلميطة أنها تقوم على نفس المكان الذي قامت

عليه مدينة برقة القديمة غير أن بطليموس يختلف مع هذه الآراء ويحدد موقعها على البحر بينما تقع برقة كما هو معروف إلى الداخل . لقد تحدث هيرودوت كثيراً عن مدينة برقة وعن تأسيسها من قبل أبناء الملك بتوس Battus ، وعن منازعاتها مع قورينه ، وعن حظها السيء أيام الفارسيين على الرغم من أنه لم يحدد لنا موقعها . وعموماً يحق أن أقول إنني قد تكنت من اكتشاف مكان برقة القديمة في مكان يعرف اليوم بالمرج التي تبعد قرابة مسيرة ساعتين عن طلمية والتي تتكون آثارها من بعض المباني المهدمة وبعض القبور والأبار العميقية التي لا يزال بعضها مستعملًا ، ومكان هذه المدينة ذو طابع ريفي إلا أنه أقل في كثافة حياته النباتية من بقية هضاب الجبل الأخضر .

حينما كنت متوجولاً فوق روابي برقة بغية الاطلاع ومحاولة العثور على ما يهمني في دراسة التاريخ الطبيعي أو فيما قد أجده من مخلفات أثرية هامة ، كان كل شيء على ما يرام في بنغازي وخاصة وأن المدينة قد بدأت تختلف

ببداية شهر الصوم الذي يضفي عليهم ما مظهرأً أهم مميزاته
قلب سيرة الحياة العادلة فيها .

خلال شهر رمضان ، شهر المحبة والسلام كانت تدبر
في بنغازي واحدة من أبشع المؤامرات فعلى الرغم من أن
قطرة دم واحدة لم تسفك من لحظة مغادرتنا طرابلس إلا
أن حدوث ما سيحکر صفو ذلك الجو الآمن الذي عشناه
قد أصبح وشيك الحدوث لأن قبيلة الجوازي لم يغتفر لها
بعد انضمامها الى البي محمد رغم أنها ارسلت ، بناء على طلب
البي أحمد ، بعثة من كبار قومها طلباً لصفح وغفران
يوسف باشا لها على ما ارتكبت من حماقة ضده . ولكن رغم
هذا فالباشا لا يزال يؤمن ، في قراره نفسه ان مهادنة القبيلة
وخضوعها لسلطته وارسالها خيرة قومها طلباً لتسامحه
لا يعدو أن يكون مجرد خضوع ناجم عن خوفها من رهبة
جيشه . ولهذا فقد طلب الى ابنه احمد فيها طلب إليه أن
يظهر التسامح مع هذه القبيلة ولكن بشرط أن يعمل في
ذات الوقت على انتهاز الفرصة الملائمة لانزال ضربة تقصيم
ظهورها الى الابد .

طلب البي أحمد من جميع مساعديه وجوب العمل على

اعتبار هذه القبيلة و كانواها أولى الموالين له و جيشه ، وهكذا مع كل يوم يمر بدأ من مركز الجوازي يقوى و تنتشر أخباره . وهذا لا نستغرب إذا ما أرسل الي في كل يوم طالباً أحد رؤسائهم الذين كانوا يلقون كامل العطف و جزيل الثناء . و بدون روش كان الي يهدف الى محاولة التخلص من جميع رؤساء هذه القبيلة وعلى أن يتلو ذلك محاولة إبادة جميع أفرادها وهذا لن يتوفّر بالطبع إلا إذا أمكن جمع جميع الرؤساء والقضاء عليهم في آن واحد ثم يلي ذلك وبسرعة مفاجأة باقي القبيلة قبل أن تدرك بدايـة الخطر .

ظهرت في الاثناء الاخيرة اشاعة قوية تقول بحصول الي على موافقة والده في اهداء (البرنوص) الى رؤساء الجوازي تكريماً لهم على خدماتهم و ولائهم له . وفي هذه الاثناء ارسل يوسف باشا أحد المقربين له ، من أفراد هذه القبيلة ، الى بنغازي في مهمـة سرية . كان هذا الرسول معروفاً لدى القبيلة لما يتمتع به من نفوذ لدى الباشا ولما كان يقدمه من مساعدات و خدمات لأفراد قبيلته وقت الحاجة . و لهذا فقد رأى الي أحمد و مساعدـه الـايمـن حـاـكـمـ مصراته على أن يكون هذا الرسول نائـباً عنـها في الاتصال

بهذه القبيلة ودعوة رؤسائما لحضور حفلة التكريم التي سيتسلمون خلاها هدية البasha لهم والذي استعمل فيما استعمل من حجج الاقناع انه رأى ، لما رفض البasha اقتراح ابنه بتكرييمكم ، وجوب التدخل ومحاولة اقناع البasha بصواب فكرة الابن التي سترزيد من ولائكم وتقضى على ما كان بين الطرفين من تناحر ، وفي هذا ما جعله يتحمس للفكرة بل ويطلب مني شخصيا ان اكون نائبه في هذا الاحتفال .

اقتنعت القبيلة بكلام أحد أفرادها الذي تكن له الاحترام والتقدير ، وفعلاً اجتمع شملها ووصلت الى ضواحي بنغازي مساء اليوم السابق لتحديد موعد الاحتفال . وكما هي العادة جاءت القبيلة بكامل ماتملك واستقرت غير بعيد عن المدينة التي ظهر فيها عدم الارتياح لدخول هذه القبيلة التي عملت في المدة القصيرة الماضية على غزو بنغازي ونهب ما وقع بين أيدي أفرادها . الواقع ان شعور العداء والكراهية بين سكان المدينة لم يكن خافيا على أحد من أفراد القبيلة ، ولعل في هذا ما حدا بشائخها الى الاجتماع ليلاً وادخال بعض التعديلات على برنامج

الاحتفال في اليوم التالي ، والذى ينلخص فى ان يكون
مبعوثيهم لاستلام هدية البشا رؤسائهم فقط وعلى ان يبقى
باقى القبيلة فى مخيماتهم .

في صباح يوم ٥ سبتمبر ١٨١٧ ، كان خمسة وأربعون
من رؤساء القبيلة ، السيدة الحظ ، قد وصلوا في موكب
كبير الى قصر البي الذي كان بشوشاً في استقباهم . قدمت
القهوة ، بعد خطب الترحيب ، وأظهر البي شعوراً ، كان
يبدو صادقاً ، من جانبه لانهاء أزمة الخلاف بين الطرفين .
وهنا وبدون أي مقدمات تدفق رجال الحرس شاهرين
سيوفهم لينفذوا الأوامر التي كانت قد صدرت إليهم . مات
الكثيرون في الحال ، وجر من أظهرروا بعض المقاومة الى
غرفة قرية كانت قد اعدت لاعدامهم ، أما أولئك الذين
سنحت لهم الفرصة بالهروب لبعض خطوات فكان نصيبهم
اطلاق الرصاص عليهم ، وكان هذا هو نفس مصير تلك
القلة التي استطاعت تسلق جدران القصر فقد كانت الحديقة
ملينة بالجنود الذين كان عليهم أن يعدموا كل من يصل
إليهم .

حمل انتهاء هذه المجزرة النكراء حركة غير عادية بين

جنود البي الذين نشروا حالة من الفزع والذعر بين سكان المدينة ، وخاصة بعد ان اصدر حاكم مصراته اوامر بتحرك باقي الجنود لمواجهة باقي القبيلة . كان ضجيج الخيالة بالإضافة الى حالة الرعب والاشمئزار بين السكان ما أضفى على المدينة حالة من الفزع والقلق يصعب تصويرها . كان على ان ارجع وبسرعة الى القصر بغية الحماية غير انني ما وصلت حتى ذهلت للمنظر الكئيب الذي فاجاني : كانت الجثث مبعثرة في كل مكان والدماء لا زالت تسيل منها بینا كان الي ممتهن ظاهر جواده وفي حالة اضطراب اشبه بالجنون لا لشيء سوى لأن الجنود لم يتجمعوا بالسرعة التي كان يريدوها . انتشر خبر الواقعه وعرف بها بعض افراد القبيلة مما مكنهم من الهرب تاركين وراءهم جميع ما يملكون . وفي هذه الاثناء كان الي يتقدم فرسانه بأقصى سرعة ممكنة ليهاجميء من لم يعرف بالخبر بعد : أنها جريمة اخرى ترتكب إذ قتل جميع الرجال والاطفال بدون أي رحمة وكذا المئات من النساء اللاتي تعرضت من لم تمت منهن الى ما لا يمكن وصفه من الضرب والتعذيب .

انتهى كل شيء خلال ساعات وكانت غنائم الي بعدها :

اربعة آلاف جمل ، وعشرة آلاف رأس من الغنم ، وستة
آلاف من البقر ، وكثيارات كبيرة من النقود وبعض الاسرى .
بعد أيام قليلة من هذا الانتقام الذي قسم بحق ظهر هذه
القبيلة وصل الى ميناء بنغازى ذلك الجموع الذي أرسل
اطلب الصفح والمغفرة من باشا طرابلس ، وكانت الخطوة
كما اعلموا انهم سيصلون بنغازى ليشاركون باقيه قومهم في
الاحتفال بتكريم قبيلتهم ، ومع الاسف لم يكن مصير
هؤلاء ليختلف عن أقاربهم فقد قتلوا جميعاً والقيت جثثهم
في مياه البحر . بعد أيام قليلة كان علينا أن نستعد للعودة
الي طرابلس وبالطبع فقد كنت كثييراً وفي غاية الحزن
لما شاهدته بينما الي وأتباعه ولو انهم غير راضين لعدم
تحقيقهم إبادة كاملة لاعدائهم إلا انهم كانوا جد فرحين
للغنائم التي حصلوا عليها .

فهرست

٥	الاهداء
٧	من مقدمة المؤلف
٩	تقديم المترجم
١٥	دواعي الحملة
٣٠	مفادة تاجوراء
٣٣	الوصول الى لمبة
٣٨	في الطريق الى مصراته
٤٣	مدينة مصراته
٤٧	الرحيل عن مصراته
٥٥	من الزعفران الى امارات
٦٠	الوصول الى هارات !؟
٦٢	في منطقة الجبل الاخضر
٧٠	في الطريق الى قورينة
٧٦	مدينة درنه
٨١	مدينة بنغازى
٨٨	عودة الى الجبل

منشورات دار مكتبة الفيلك
لـطباعة والتوزيع والنشر
طرابلس - ليبيا